الثقافة

مجلة فكرية تصدر في دمشق

الثقافة

AL SAKAFA

ـــــ ادبية فكرية جامعة تصدر شهريا ـــــ

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

مؤسسها
ورئيس تحريرها

مدحة عكّاش

PROPRIETAIRE DIRECTEUR EN CHEF

MIDHAT AKKACHE

تأسست عام

١٩٥٨

شباط ١٩٨٧

دمشق سورية ص.ب: ٢٥٧٠ ـ هاتف: ٢٢٩٩٨٤

Damas .R.A.S.
B.P. 2570 Tel. 229984

محتويات العدد

الحداثة الشعرية		احمد اسعد العلي	٣
أضواء ..		حسان الكاتب	١٠
يا أمي	شعر	عبد المحيد التجار	١٣
تعريف القدماء للبلاغة		قصي الشيخ عسكر	١٧
الشعر مدينة الاحلام		محمد زهير الباشا	٢٥
يا حامل الشوق	شعر	شفيق عبد الخالق	٢٨
مقدمات النهج الواقعي في الحركة الادبية		الهام طه النجار	٣٠
الانخاب	شعر	قاسم حداد	٣٣
الى عابشة	شعر	حامد حسن	٣٤
الفكاهة فن ومذاهب		محمد غازي التدمري	٣٦
في آخر هذا الوقت	شعر	صالح هواري	٤١
عيسى الناعوري حياته واعماله		عيسى فتوح	٤٢
بطاقة اعتذار صغيرة ـ قصة ـ		محمد علي برازي	٤٥
نيران على القمم		سعيد ابو الحسن	٥١
الطفولة ونشيد البقاء		احمد دوغان	٥٨
هنري بروغسون والاخلاق		.....	٦٠

الحداثة الشعرية

بين الكيانات الرخوية والكيانات التراثية

بقلم أحمد اسعد العلي

اننا امة معانيه ترسف في اغلال التغلب العالمي حضاريا وفكريا مما جعل ناشئيها يشعرون بوجودهم الجغرافي فحسب غير مبالين بوجودهم القومي الا بمقدار ما يتعلق ذلك بامتحانات الشهادات !!.

ان الشعور القومي لا يكون الا باستمرار تدفق النسغ التراثي الذي يمنح ابداعاته ابدا من الارض والمجتمع . وبتاثير الاشعة الشعرية تحدث عملية التركيب الصوتي ليخضور هذه الابداعات ولكن بعيدا عن اولئك المتعكزين من مقلدين رومانسيين لتمرير نتاجهم من قصائد ميتة ليس لها من الابداع سوى ضوابط شكلية هشة مفرغة حتى من الجماليات التشكيلية والارهافات الشاعرة ..

وبعيدا جدا عن البرناسيين ومريدي اجهاضات الارهاص الشعري وعمن وقعوا في مغراق التغريب بل في ـ عقدة الغربي ـ الى حد التمني ان يعيشوا محلياتهم الاجتماعية في اجواء الغرب تماما كما تمنى غربيون كثيرون في العصر العباسي والاندلسي حين غرفوا من الفكر الشرقي ما شاء لهم قدر التواصل الحضاري . اهي الدورة التاريخية ؟ حتما لقد تبودلت الادوار ولكن محدثي الغرب لم يتمردوا على تراثهم بل ابقوه روحا يعيش بها حديثهم ثم انهم لم يكونوا مقلدين ولم يعتمدوا ادب الترجمة بل ابدعوا مضامين شعرية كعلاقة سببية للابداعات المستقبلية في مجتمعاتهم حيث اودعوها في اشكال تراثية تختلف منذ بدايات نشوئها عن الاشكال التراثية العربية من حيث ان الوزن العروضي لديهم هو في حقيقته غير موزون بل هو لما يزال مقاطع في مزدوجات هي في احسن الاحوال مطعمة بقافية خنثى او اكثر ..

انهم في الغرب لم يتمكنوا من تجاوز هذا الارهاص الشعري في المزدوجات الا في العودة الى صياغة البدايات حين كان الشعر عند نشوئه خلجات نثرية وحسب وذلك بسبب الاضطراب اللغوي لديهم فجذور لغاتهم ليست في الطبيعة بل هي تاريخية تعاني من فقدان الاصل الروحي الموسيقي وضياع الناظم الجذري الثابت ، ان الاحفاد الفرنسيين مثلا قد لجأوا كثيرا ، وبوسائل البحث التاريخي الممكنة ، الى ترجمة ادب اجدادهم ليتمكنوا من التعرف على هذا الادب ذلك لان معدلات تصرفهم في اللغة عبر الجيل الواحد هو الى حد التغيير الفوضوي احيانا وربما كان ذلك نابعا من شك ذاتي لديهم في اصالة لغة الاجداد باعتبارها ليست وليدة طبيعتهم وانما هي هجين تكويني من اللغات الهندية الاوروبية معا !

ان ذلك التغيير لا يعني بالضرورة والحالة هذه تحولا تقدميا بل هو اقرب الى التحولات الانكسارية التي تذهب بالشيء كاملا الى اشياء جزئية وذلك بعكس اللغة العربية التي هي في اسوا احوالها ذات خاصة « اسفنكسية » . فالعربية التي تحول العرب في العصر العثماني الى كتابتها باللهجات العامية المختلفة جف معين حياتها الابداعي الذاتي فطويت بذلك صفحة

من صفحات الثقافة الانسانية ولكن الى حين ، فقد قامت سريعا من صحراء ذلك الجفاف لتمارس رسالتها الخالدة بنفس قوتها الحياتية البدئية ، ذلك ان المثقف العربي قد انحدر في العصر العثماني الى حالة من التكلس امتدت اجيالا مما باعد بين الشعب وثروته الثقافية الوجدانية ..

وهكذا التفتت العكاظات العربية المعاصرة الى النهايات العباسية لتتواصل بها تراثيا في نوع من التوازن التاريخي بين تراث الجذور الضاربة في اعماق الماضي والفروع الناهضة على سطح الحاضر في حين كانت لبنة ذلك التوازن التاريخي هو لغة التراث التي استمرت تحمل ايدلوجية التشكيل في الشعر العربي وتصلب شكلها الى درجة انها منعت من حدوث انفصام مرضي بين التراث الماضوي والحداثات المتوالية تماما كما كان الشعر العربي يعيش سائر مجالات لغته مغنيا الفكر الانساني ومغتنيا منه رافضا بان واحد الاستغراق في الاقليمية ..

وهكذا فعل ادباء التراث من امثال ابي النواس والمتنبي . فقد كانوا مثقفين كبارا عاشوا في مجتمعاتهم متفاعلين مع الثقافات الاجنبية اليونانية والهندية والفارسية ولكن ان يتفاعل الادب العربي مع الادب العالمي ليس معنى ذلك ان نعتمد ادب الترجمة وموحياته فحسب ونسمي ذلك ابداعا وهو اليوم هجين متناقض الى حد التنافر المقرف نتيجة تناقض مصادره التي ينهل منها اليوم سواء الايدلوجية او القومية في حين يفتقر الى مجرد ناظم شكلي له . وفي ذلك ترسيخ لما هدف له مفكرو الغرب ممن حقدوا على التراث العربي فحاولوا النيل منه وخاصة « الشعر » بغية تدمير احد سواميك الروح الثقافية الوجدانية للامة . والامر الكارثي هو محاولة مريديهم لدينا وقد شحنوا بافكارهم ان ينالوا من ذلك التراث في حين يسوغون لانفسهم منطلق الوصاية على الادب العربي «القاصر» !. ان محاولتهم تدسيم الدماء الشعرية العربية بشحوم الصناعة الغربية انما هي عملية خطيرة قد تؤدي الى تصليب العروق الشعرية وبالتالي الى سكتة الشعر . اننا لا نريد للشعر العربي ان يرسف في اغلال الغربية بل نريده ان يتنامى في فسحة الحرية بعيدا عن مظاهر الفوضى والرخويات الادبية التي تتحرك بارجل كاذبة !.

ان الحرية الحقيقية هي تلك التي تسلم ضوابطها من نظام ما متعامد مع جذور القاعدة التراثية والمتمثلة بنظام المعاد له الموسيقية والمتفاعلة مع القواعد التراثية العالمية بالقدر الذي يكفي لاستمرار الشخصية القومية والاجتماعية بكبرياء وثقة .

لقد ارخصوا الشعر العربي عندما قالوا بان لدينا قيم شعرية عربية او مجرد مقاييس لها بل قالوا عندما نريد ان نكتشف القيم الجوهرية للقصيدة العربية المعاصرة علينا ان نزينها بمقاييس القصيدة الغربية الحديثة !! وهم في ذلك غفل عن استكناه ماهية الحداثة غير مدركين ان روح الحداثة التي بها يعيش الشعر المعاصر هي التي يتمثل بينها وبين روح التراث علاقة جدلية طرفاها التعامد والتوازي بحيث يريك منظور هذه الجدلية فروعا بواسق انما تستنسغ من جذور ثابتة اذ لا بقاء لفروع انقطعت عن جذورها .

وحيث نجد ان نشاة الحداثة الرخوية التي استنسغت من غير العربية كانت بداياتها في منطقة الرافدين حيث انكلة النفط ادت الى « انكلة » الثقافة فقد تبنى مرهصوا الحداثات حيال ذلك ادبا شد على قوالب محليات غربية لا يصلح التعامد بها او عليها متعامين عن اوابد التراكم والتنامي الابداعي لآلاف السنين تشكلت منذ البدايات الاولى للشعر العربي ورفدتها في الازمنة الشعرية سائر الميازيب المحدثة فكانت كوثرا ابدي الحياة متفاعلا مع اصلاح ارضه وزمنه ومجتمعه .. وهو الى انه ابدي الحياة فهو ليس زمنيا اذن لكان كل حديث بعد يومه قديما وهو ليس مجرد الابداع وحسب اذن لكان الوزن المحدث « المديد » في قصيدة « تابط شرا » وتجاوز « المقدمة الغزلية » في « لامية الشنفرى » يتقدم حتى على عطاءات المتنبي .. فالحداثة والحالة هذه لا تكون شعرا حقيقيا الا بمقدار ما تتاصل من التراث وترفده،

تماما كظاهرة الشعر الاندلسي التي ظهرت بشكل كيانات شعرية جديدة على المنظور الشعري ولكن هذه الكيانات زالت بزوال الحاضن الذي اكتنفه على الرغم من استمرار الزمن الاندلسي بضعة قرون ونيف ، حقا ان الحداثة الاندلسية تصرفت في الاشكال والمضامين ولكنه تصرف متعامد مع الذات التراثية ومتوازن مع الاحداث والمتغيرات وانما بالقدر الذي تفاعلت به مع محيطها الطبيعي والاجتماعي والنفسي ..

واما المنتصرون للانسلاخ من جلدة التراث فهم يباهون بالعقود الثلاثة التي عاشتها حداثتهم الشعرية ويعتبرونها فترة زمنية كافية لاثبات قوائم هذه الخلبيات من الشعر . نسوق لهؤلاء مثلا : ما الزمن الاسرائيلي في فلسطين .. أهو ثلاثة عقود ؟! بعيدا بعيدا عن الاستغراق العمودي في الفردية ايها العاقون ... وبعيدا عن المباهات بتهافت السقوط الفراشي على وهجات الادب المستورد ـ انه اذ يشد العين النشاز من عيون مريديه فانما ليسقطها في كوى من مهاب الاحتراق تماما كالفراشات يجذبها ضوء النار الى الانتحار ! لقد كانت الرؤى النابضة بالحياة على مدى الازمنة الشعرية استشرافا لآت بل رحلة في المستقبل متزملة بالماضي تنبض بالشمول في اوابدها وترعش بالمخزون التاريخي والفلسفي والاجتماعي بعيدة في ذلك عن الرؤى البهاقية المتناقضة بل كانت هذه الرؤى العبقرية تنسكب في تلقائية شعرية تواكب التنوير ان لم تحدثه وهي كانت عندما تتجاوز جسدها الاجتماعي بخطوات بعيدة المدى لتجد نفسها في شبه عزلة كانت تضطر الى التراجع لنفس هذه الخطوات لتبقى وحيدة !! « طرفة ، عروة ، المتنبي ، ابو العلاء » .. ولكن الرؤى المعاصرة المتشاعرة ماذا فعلت؟ لقد تثاقفت على حساب السوامق والاوابد وحملت بعضا من قواميس ثقيلة غربية المنتمى وبعضا من قنان فارغة ورطوبات عفنه وأحذية صينية وبعضا من قطع غيار جاهزة ليصنعوا بها ثورة في لغة الشعر فانمسخت قامة الشعر ، بل انهم رغبوا الى جماهير الشعر ان تصبر على بغائيات حداثوية ريثما تستقر بها قواعد ، فهل الى ابد اللا مصير يكون صبر ؟! وهل في اتهام الاحاسيس الفلسفية تبرير لتعثرهم ؟ فكأنهم لم يدروا صحة العكس في مقولتهم « القاعدة لا تمنع الاستثناء »

فاتهموا مسيرة الشعر الاصيلة بالسلفية والشكلية !! لقد قادوا الجيل الحفيد الى غير امه التراثية فأرضعوه بشكل او بآخر ما نشزبه عن هويته مما جعل الشعر العربي يبدو اجنبيا عن جغرافيته فقل رواده ومريدوه من رجالات الادب وبالتالي تقلقل الشعور بالالتزام القومي ولكن ذلك لا يعني ان في الواقع جفافا وحتى لو كان ذلك فانه لا يستلزم جفاف الاحساس الشاعر بل ربما كون ذلك مناخا من العلاقات السببية للحوافز الشاعرة فانطلقت ولو قليلة صرخات مدوية تشد الاعوجاج الى طريق الاستقامة متلافية الرفض الجماهيري لهذا الرخوي من الزنى الشعري ، الذي لم يستطع حتى ان يلد جنينا شعريا !..

ولكن ينشد الجمهور الشعبي الى الشعر يهتدي به الى هويته القومية والاجتماعية كان على الشاعر المعاصر ان يكون نفسه فيرى ان ما يسمى شعرا منثورا ليس هو في الحقيقة الا شكلا عصريا لادب النثر العربي ولكن ان يستمر العناد في تسميته شعرا فذلك امتهان لادب النثر بل اسقاط له من الادب العربي ، ومغالطة تنفر الجمهور ، ثم كان عليه ان يلتفت الى الشعر في شخصيته الحقيقية فيعيش اجواءه غير منحرف الى اجنبية الواقع ، مدركا قيمة الكلمة الموسيقية الشاعرة ، ومستشرقا عصرية الحياة ومتفاعلا بها غير متورط بعصرية مطلقة مبتورة الجذور ، ومستكنها لوقائع الاحداث بكلتا الشعورية الشخصية والشعورية الجماعية ، وبعيدا بابداعاته عن طريق المفاهيم والمفاهيم الجاهزة سواء المترجمة او المستوحاة من واجهات مختلفة الهويات من حيث بدأت تتحول الى رخام من الرخويات الحداثوية تبقعوت على طريق الادب العربي مما اعوزنا الى آلة جرف !!.

والمنتصرون للانسلاخ من جلدة التراث يزعمون ان شعراءه قد يعرضون شيئا لكنه نفس اقفاص امرىء القيس وبعصافير تزقو ابدا لتخرج منها !!.

هؤلاء هل تجاهلوا ان وردة الربيع تتوالد كل اجيالها بنمط واحد ولكن بعبقرية الطبيعة المتجددة !

وانه مهما تغيرت انماط واشكال اناقـــات الـوردة اللا ربيعية ومهما رشوا عليها من العطر فهي صائـــرة الى حتمية موات . كذلكم الموسيقى الكونية من حفيف غصون وزقزقة عصافير وامواج بحار وهسيس اوراق اليست ذات موسيقى تكرارية وانما بابداعات متوالية لو كانوا يعلمون !!.

كالموسيقى الشعرية ذات النظام المتناظر هـــي بحقيقتها متكاملة متساوقة كابداع نهائي لجدليـــة الموسيقى في حين اجتازت مسافاتها مسيرة الشعـــر العربي منذ البدايات فكانت ولا فخر ارهف واسمى ذائقة موسيقية شعرية متوازنة من بين مرهفـــات شعوب الانسان !!.

ثم لقد تابع الشعر العربي مسيرته ضمن ركـام هائل من مدارس شعرية متناقضة واحيانا من لامدرسية فوضوية يعاني فيهـــا مـــن رفض مغراقي التغريب ومعارضة تمتاح نسغها من خالف تعرف ومن فحميات ادبية هي احدى نواتج الاستعمار الثقافي .

وحيال ذلك كان لا بد من عملية فرز كبيرة هي في بعض حالاتها اكبر من حجم النقد الادبي الحديث نفسه ونظرة حيثية نقدية للحركة الشعرية المعاصرة نجد ان الحداثيين الرخويين حاولوا ان يسجلوا على استمرارية الحركة الشعرية المتعامـدة مـع التراث بعضا مـن اتهامات :

١ ـ الاستغراق في الشكلية الرتيبة حتـى انهـم تمادوا فتجاوزوا كلمة الاستغراق الى كلمـة العقـدة فقالوا بالعقدة الدولية في النحـو وبالعقـدة الخليلية في النواظم الموسيقية ، فهم والحالة هذه سيقولـون بالعقدة الانسانية في الحياة التي استمرت منذ الازل بنمطية متوالية (طفولة فشباب فشيخوخة) وبالعقدة الربيعية في جماليات الطبيعة التي استمرت اورادهـا وازهارها بعبقرية الطبيعة المتوالية ؟!!

٢ ـ تمرحل الشعر التراثي الى تكلس وكان تحركه اليوم رحويا مع السلفيات الشكلية بل انـه اليـوم ليس شعرا في منظور مقاييس الحداثة لديهم !! وانهم لا يدرون ان الشعر العربي قد حمل وارشف آمال وآلام الامة فواكب تاريخها وتنفس احاسيسها وفلسف مستقبلها بواجدانية ايحائية متميزة !

ام انهم لم يدركوا أن التحلل من مشكلية الدورة الموسيقية انما هو محض افـــراز غربي رفع لواءه المبغاوات الذين استقر في اعماقهم ان الغرب مطلقا هو التقدم وان الشرق مطلقـا هـــو التخلف ؛ وان اللا شكليات الشعرية المهربة بالنسبة لتنظيراتهم لها نفس جاذبية الثياب الاوروبية المهربة بالنسبة لاجسادهم: هؤلاء كرهوا لسبب من عقد فيهم استمرار حمـل الهوية العربية في اللغة والشعر كذلك منافقو الادب ممن راوا في مقياس العصرية تناسبا طرديا مع تحللهم من الذات !.

٣ ـ الدعوة الى الاستمرارية انما هي تصليب على الماضي ، والدعوة الى عدم الاكتفاء بحسيات الشـارع انما هي غيبيات جانحة متبرجزه بل هي ارتداد عـن الثقافة الجدلية المتوثبة يجب مبارزتها بسيف ابن ولبد الشعر ! وكانهم يقولون ان في استمرار الانسان انسانا تصليبا على ماض ران في استنساغ الفـــروع مـن الجذور ارتدادا او مواتا !! ثم هل هو من الضرورة في شيء ان نرتدي اسمالا من العامية الشارعية بغية وصم « معصري التراث » بالبرجزه اللغوية والفكرية .

وهل نسمي عملية نفض غبار الغربيـان من عفن يباس عن الحلل الشرقية عملية مبارزه على حـــد تعبيرهم بين ثنائي الشعر « الماضوي والحداثوي » ثم نجيز لانفسنا ان نسعر بينهما براكين مـــن لا مبالاة المصير !.

٤ ـ ان الشعر العربي كان سينحو منحى ابداعيا حداثويا مستمرا فيما لو استمر التفاعل العربـــي الاندلسي ولكنه جوبه بصليبيه ارجعته الى مـا وراء الظاهرة الاندلسية وهو اليوم يجابه بصليبية جـديدة لاعادته الى ما وراء ظاهرة التحديث الجديدة بغيـة لجمة ثانية باشكال المعادلة الموسيقية وبالوشائـح

اللغوية والشرائح الاسطورية ثم لاغراقه بمقاييس بلاغية هي تاريخيا مستوردة من الامم المجاورة وهؤلاء رهبان الاشكال التراثية لا يزالون جاهدين يدفعون بها الى شاطىء العصر الحديث !

وللحقيقة نقول انها المسوخ من القامات عجزت ان تتسامى الى العناقيد فنعتتها بالحموضة . ام انهم يرغبون غير اصولهم ومنتمياتهم فاضفوا هذه الرغبة على تنظيراتهم بل تهويماتهم الشعرية ؟ ثم الم يدركوا ان الشعر العربي غرب في الاندلس يلبس زركشاتها وانماطها ولكن من حيث تواصلت بأسدية عربية الاشكال ؟ وهو عندما راح يتعرى منها عاد يرفل في ثيابه الشرقية الساحرة ارهف حسا واصدق ذاتا (المتنبي ، الشريف ، ابو العلاء) ! ثم اذا هم تقياوا علينا بعضا من فحمياتهم الرؤوية فليكونوا اكثر لباقة في حضرة الاجداد فلذلكم كتاب « الوساطة » يعرفهم المقاييس السلفية علهم يرون فيها استشرافا لحداثة تقصر عنها اقصى حداثاتهم الراهنة اذ يقول :

وكانت العرب (انث « العرب » لانه عنى امة العرب) انما تفاضل بين الشعراء بالجودة بشرف المعنى (سموه واستشرافه للمستقبل) وصحة وجزالة اللفظ (الانتماء اللغوي الى الفصحى متجذرا بها حتى الشعيرات الماصه في الاصوات والوقفات والصور الايحائية) وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبده فاغزر ولمن كثرت سوائد امثاله وشوارد ابياته (الوصف والتشبيه وغزارة البديهه تتلاقى في محرق سيالات الشعور الراعش بالتشكيليات المتساجمة) ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالابداع والاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر (الموهبة الحبلى ببذور العبقرية متواليه الربيع) !!..

٥ ـ الشعر العربي التراثي لم يستطع ان يستقل عن التاريخ وهو الى ذلك حمل الى الجمهور ثالوث التخلف « الجهل والفقر والمرض » كما حمل اليه تشويها تاريخيا بتصويره العكس لمجريات التاريخ مثلا (كما في قصيدة عمورية لابي تمام) التي كانت بعرف بعضهم مجرد مذبحة انسانية ناجمة عن نزوة ردود الفعل لدى سلطتين متزاحمتين ! على كل فانهم يعلمون ان ما ينظرونه اليوم من تصورات سيكون تنظيره عكسيا في منظور المستقبل على مبدا المتغيرات الفلسفية والتاريخية ثم الم يروا انه حتى نضالات الاستقلال الوطني والاجتماعي الحالية انما تنفست برئة الشعر التراثي وقامت تحت قوافيه بل انهم يرمون القصيدة التراثية بالزنى الاممي من حيث قالوا مع منظري الاستعمار الثقافي بان شكلها انما هو جذور مستوردة من يونان او فارس او هند وهم حيال هذا السياق قد يسترسلون الى القول بأن العرب كشعب انما هم جذور مستوردة من هند او فارس أو يونان ؟!

ان مريدي هذا الزيف التنظيري لا يخوضون في تهويماتهم هذه الا بما يتساوى مع اجر مسعر او مع شهرة تردم كوة نفس ، ذلكم اناس لا يخرجون من ذواتهم ..

٦ ـ ان سوابق عمود الشعر تبني نفسها بسواميك المناقضة على مبدا الاولوية التراثية وهي في ذلك تغرق في سبات من الشكلية الابدية غير متكيفة مع الحركية المتسارعة للايقاعات الحياتية والنقلات الحضارية !!

حقا الا يعلمون انه من دواعي الاعتزاز تنطلق الاولويات من الجذور ! ثم الا يعلمون ان في هذه السوامق كانت الحوافز لسائر ثورات الانسان العربي ؟! ثم ان تثوير الانسان انما هو مسألة مضمون وليس مسألة شكل تماما كالتثوير في القصيدة الشعرية فانما هو في المضامين وليس في الشكل بل ان تخنيث القصيدة عن طريق تنشيرها ليس تصرفا في الشكل وحسب ولكنه تحول الى لا شكليات رخوية وانحدار الى الادنى !.

٧ ـ رجعية لغة الشعر التراثي وغموضها المعقد وعجزها عن استكناه الحداثويات ! وهم في ذلك قد تمادوا بشذوذهم التنظيري فحصروا العنب عندما عجزوا عن معرفة الابعاد الايحائية والفلسفية والوجدانية والعمق المستكنه في لغة التراث فصاروا الى مسدات طرق ومغاليق ابواب لانهم انما داروا في عكس اتجاه الحقيقة حين التقوا مع دعاة العامية بشكل ما . لهؤلاء نسوق دراسة حديثة تبين ان عالم اللغة

الانكليزية يكاد لا يحفظ من لغته اكثر من عشرة آلاف كلمة من اصل يقارب نصف مليون كلمة تراثية مضافا اليه ربع مليون كلمة محدثة مما يلجئه في حالات كثيرة الى استخدام قاموس !.

ونحن لا نكاد نعثر على كلمة من منسياتنا او مما لم نكلف انفسنا استيعابها حتى نصرخ بالتعقيد العربية ! ام انه كان على واحدنا ان يولد عالما لكل ما يمت الى لغته ، والا فهو حل من الالتزام بها ، (وذلك هو الضلال المبين !) ثم الا يدرون ان التعقيد والغموض لدى الشاعر التراثي هو نسبة الحصاة الى هملايا بينما هو نسبة الهملايا الى حصاة لدى ما يسمونه الشاعر الحداثوي .

ان الشعر العربي على الرغم من كل هذه الحجارة السجيلية التي حاولوا قذفها في وجه مسيرته المعاصرة فهو ما يزال ينبض بالاستمرارية ويعيش في عفوية الحس الشعبي متميزا عن ادب النثر لقد ظل الشعر هو المحرك الفعلي للجماهير الى ان بدا الخلل يتسرب الى نظامه الموسيقي عن طرق الاعتماد على مقاييس النثر الادبي فحسب سواء في جاذبية اللفظة ذات الموسيقى الذاتية او الحمل الجمالي والتوفيض وما الى ذلك من ارهاصات خيالية ونزوية ، والى ان مورست ظاهرة القمع على الشعر التراثي بهراوات من الانتهازية والسلبية والصياغات البراغماتية والبكائية والمازوشية والاساليب اللغوية فقيرة الاشتقاق جديبة الاهداف سواء اللغة العقارية او لغة الاسهال الكتابوي ذات الورم الجانبي مما يوجد في اقرب دكان للشعر الاوروبي . وربما في غد منظور سيقول مؤرخو الادب ان ظاهرة الطفح الادبي من غوغائيات مما يسمونها « حداثات شعر » لم تستطع ان تؤصل ادبا جديدا بل استمر الشعر العربي يعيش قدره في الرسالة الخالدة متواصلا بالتراث انما بمضامين من الحياة المعبقرة وبمتواليات من الشباب المتجدد ، اما الجديد الذي استوحي من التغريب في مستنقعات الانحلال الحضاري المتاخم فهو موغل في القدم ، ذلك ان تلك الصياغات في اللاشكليات ليست سوى نسخ للبدايات التي تجاوزها الانسان العربي في فجر تاريخه !.

في التاريخ يدل غير قليل من المؤشرات على الشعر العربي تطور من الايماءة ، الى الكلمة المرمزة الرامشة الى الكلمة المعبرة الشاعرة فالتفعيلة الحداثية فالشطرة الشعرية فالرجزيات بركائبة الشعور فقصيدة الشعر المتساوقة والمتناظرة مع دورة موسيقية كاملة في النفثة الشعرية الواحدة سمي « البيت الشعري » وهكذا صار الانسان العربي اول الخلق الى الكمال الشعري فكان الشكل في الشعر كما هو الشكل في الانسان قصيدة الابد المتناظرة في صدر وعجز !!.

ولو ان الخليل الفراهيدي لم يكتشف في جنبه بعضا من النواظم الموسيقية للشعر العربي لما احدهم حقق اكتشافها هذه الايام اذن لكنا سجلنا في تاريخنا المعاصر انه تحقق اكتشاف فذ للذات الشعرية العربية !. ذلك على الرغم من ان الاكتشاف الخليلي لهذا البعض من البحور الشعرية ليس الا جزءا صغيرا من كل كبير بدليل اضافات بحور اكتشفت من بعده حيث أن هذه النواظم الموسيقية انما هي روحية المنتمى جذلية الارهاف توالدت من غنائيات لا متناهية التنوع مما يفيض ربيعا متجدد الحياة !..

ويشاء القدر التاريخي للشعر العربي بعد هروبه في العصر العثماني ان يسقط في مطبات حضارة الرجل الآلي الذي تجذرت اسافينه في ضباب الاطلسي وعمر البلطيق ، فحاول ان يقوم من بعد سقوط ولكنه قام بنصف ثورة الى الوراء الى صياغة البدايات الاولى متوهما انه يتمثل معادل الحضارة الراهنة بعبثيات كاريكاتورية حشرها في شعر الشطرة فشعر التفعيلة فالكلمة المعبرة الشاعرة بما يسمونه « قصيدة نثر » والتي هي بالحقيقة ليست سوى ادب النثر الحديث !

حقا انه عود على بدء . وليته عود كالبدء من حيث تقول شاعرة فرعونية في عهد البدايات تخاطب حبيبها

« انه لمبهج يا اخي الذهاب الى الغدير !
هناك ساستحم بحضورك ،
وساتيح لك رؤية جمالي وانا في ثوبي ،
من الكتان الملكي الناعم »
عندما يغدو مبللا ...

وارجع مع سمكة حمراء ...
تستريح بروعة على اصابعي !..
تعال وانظر الي .....»

وكجدلية عيني السماء في اسطورة شرقية شاعرة:

« ثلاثة ايام وثلاث ليال ...
كان الله في خصومة مع الشمس !
هزمت الشمس القمر ...
بحجر فضي ! »

وكنشيد بابل للام عشتار حيث اخذت الكلمات تتفلسف وتتموسق :

.. « انها المليكة ، مطاعة من الجميع .
الكل ينحنون امامها !..
وهي عندما تظهر ...
تستمد النور منها !..
حقا .. نجلها على السواء ،
رجالا ونساء .. » ..

وتطول في نهاية البدايات فترات الجدليات الموسيقية والايحائية لتصير الى التفعيلة الحداثية . فالشطرة الرجزية : ثم ليبزغ فجر استقرار النواظم الموسيقية ، ولكنه يبزغ من بعد اضطراب عروضي تارجح بين طرفي البيت الشعري ، كقول امرىء القيس في اولياته :

.. « عيناك دمعهما سجال كان شانيهما اوشال »

ثم استمر الشعر العربي يتسامى الى النهايات المتساجمة يرهف به السياق المعنوي بدورة موسيقية كاملة التناظر ، كفيزلوجية الانسان تتكامل شكلا بجزئيه المتناظرين ورويا بمديي التنفس ، تماما كسيكولوجية القصيدة تتكامل فكرتها شكلا بين طرفي البيت ورويا بين مديي الايقاع ، كقول « عروة » من الصعاليك :

.. « فاني امرؤ عافي انائي شركة
وانت امرؤ عافي انائك واحد » ..

وارتعشت اللفظة الشاعرة بالزمانية والمكانية ، لكن لتحلق بهما في « النهايات » الى التحرر من التغيرات واللا شكليات باجواء من الصور الموسيقية الموحية .. كقول دعبل :

.. « لا تعجبي يا سلم من رجل
ضحك المشيب براسه فبكى ! »

وهكذا ارهفت اللفظة الشاعرة لتصبح حقا ساموك البيت الايقاعي ، وبات الشاعر التراثي ـ ولا اعني المتعكز على التراث ـ لا يرضى باللفظة المعبرة التي استوحاها بديلا فهل كان للمتنبي ان يرغب مثلا عن كلمة روم الى كلمة « خصم » ، ،او هل رضي (والمنايا هي صورة الدماء تراق) ان يضع كلمة « تراق » بدلا من كلمة « تدار » في قوله :

.. « وسوى الروم خلف ظهرك روم
فعلى اي جانبيك تميل ؟
ليس من عنده تدار المنايا
كالذي عنده تدار الشمول .. »

واذ تواصلت المكاظات المعاصرة بالتراث . هل كان للشاعر « الشاعر ! » ان يرضى بديلا بواحدة « سواء من لفظة هادفة او صورة موحية » كقول احمد شوقي:

.. « ناقوس القلب يدق له وحنايا الاضلع معبده» ..

وقوله :

.. « وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق» ..

وتتمبدا او تتأدلج الكلمة الايقاعية ، كقول عبد اللطيف بشمان يرفل باللغة الشاعرة في شعره التشريني :

.. « وشعاراتنا على الخوذ الحمر
وعينيك ، « ان يمر الدخيل » ..
والخريف الشجاع كرمى « لتشرين »
تباهى وتوجته الفصول ! » ..

.. من منظور هذه الرؤى الشعرية نرى ان القصيدة الشاعرة بشخصيتها المتميزة تتنفس هموم الموقف وتستلهم القضية لا تنفعل بها فحسب بل تستكنه عمقها وتنبض بالواقع لتتفاعل معه بروح جدلية وترعش بالمستقبل تستوحيه امانيا واحلاما وتتنسم الحداثة برئة « المعادلة الموسيقية » وقد تعافت من خدّاع الذات زمن الامراض المستوردة والرواسب التراثية المشوهة ، محصنة ضد التسول والتعكز وضد الروم التغريبي ، تشد الرحال الى ربيع خلف بروح ربيع سلف تتجاوز التشيع الفوضوي لا لتقع في مطبات من الحركية الآلية ولكن لتحلق الى تعصير التراث بعفوية مرهفة الشحنات وبلغة متساجمة شاعرة ..

حمص ـ احمد اسعد علي

أضواء . . .

على الديوان الشعري الجديد

«حَنين»

حسّان الكاتب

صدر مؤخرا ديوان شعر جديد للشاعر الاستاذ عبد المجيد تجار بعنوان "حنين"

ولقد عرفت الاستاذ التجار منذ نحو ثلاثين عاما يوم كان محافظا للسويداء حيث كنت أدرس في ثانويتي المزرعة والحكمة .. عرفته محافظا ناجحا واداريا محنكا أحبه الجميع لما لمسوه فيه من رعاية لمصالح المحافظة وكان يومها صديقا لوالدي المرحوم بدر الدين الكاتب (١٩٠٥ - ١٩٨٢) وهو رئيس لمحكمة الجنايات بدمشق .

توطدت صداقتي مع صاحب ديوان " حنين " بعد ان أصدرت الموسوعة الموجزة في ١٩٧١/٣/١١ حيث جمعت بيننا آنذاك، هواية مشتركة الا وهي حب الكلمة الجميلة والادب الاصيل . وقد اكبر شاعرنا عملي في الموسوعة الموجزة وشجعه وكان لتشجيعه اكبر الاثر في نفسي فقد اهداني مجموعة ابيات شعرية اعتز بها ما حييت .. كان حسان يا قلما يسجل مجدنا

ليضيف امجادا الى امجاد

وكان لي الشرف ان ضمن اللواء تجار هذه الابيات ديوانه الشعري "حنين" الذي صدر مؤخرا فيمطلع عام "١٩٨٧" والذي نحن في صدد الحديث عنه .

تلك مقدمة لا بد لي من ذكرها لبيان مدى علاقتي بصاحب الديوان .

وان من يطالع هذا الديوان الشعري يجد فيه / ٢٣ / قصيدة من الشعر العمودي تتصف كل واحدة منها بلونها الخاص .. فتارة يصف الشاعر حنينه الى بلدته ومسقط رأسه " دير عطية " وتارة أخرى يصف نضال دمشق .. وحين يتوفى احد أصدقائه ومن يعتز بهم يرثيه بقصيدة .. كقصائده في رثاء الوزير السابق اسماعيل قولي والمناضل مصطفى سعيد الجراح ، والشاعر الاستاذ انور العطار والوزير السابق الدكتور محمود سعدة ، وقائد الثورة السورية سلطان باشا الاطرش ورئيس الوزراء السابق الاستاذ صبري العسلي ، والعالم محمد وفا القصاب والطبيب العلامة الدكتور ابو اليسر عابدين والمطران ابي فانيوس زايد والشهيد الطيار غسان صلاح عبود والشاعر الزجال محمد سليم دعبول الذي كان عميد الشعر الزجلي فيمنطقة القلمون . هذا الى جانب القصائد الاخرى .

ومن يطالع هذه القصائد يلمس فيها صدق العاطفة وبعد الاثر في النفس الى جانب الجرس والبعد عن الحوشي والمغالطة كقوله في رثاء الشاعر انور العطار :

أبا هشام مصاب القوم ليس له
حد بفقدك يا اغلى غوالينا
غنيت تاريخنا ذكرى وموعظة
وحكمة فازدهت فيه مغانينا

ويتمثل صدق العاطفة عند الشاعر في رثائه لبطل الجمهورية العربية السورية النقيب الطيار غسان صلاح عبود حين يقول :

غسان يا بطلا يطرز راية
تحمي الحمى من نكبة العدوان
أنت الذي سجلت امجد صفحة
مع نخبة من صحبك الشجعان

والشاعر يضمن قصائده ابياتا من الحكمة تصلح لمناسبات مماثلة في كل زمان كقوله في رثاء فقيد قلمون الغالي الشاعر الزجال محمد سليم دعبول :

قهر العباد جميعهم في حكمه
مالا مرئ في الحكم اي خيار

الله اكبر كيف يقهرنا الـــردى
مهما أصبنا من عـــلا وفخـــار
فكأنما جئنا الى هـذي الدنـــا
صبحا لنتركهـــا أصيـــل نهـــار

والشاعر لا يكتفي بالحديث عـــن مناقب المرثي بل يتحدث عن آثاره فـــي تربية أنجاله فهو يتابع قصيدته بقوله :
أنجبت أشبالا غدو فخر الحمـــى
فكأنهـم روض مـــن الازهـــار
باهت بهـم هذي الربـوع وسجلـت
لأبي سليم اطيب الاثـــــار
في بره لأبيـــه كـــرم بلـــدة
بالعلم والاصـــلاح والاعمـــار

والشاعر يهدي قصائده ايضـــا للقادة اللامعين كقصيدته التي اهداهـــا لسيادة العماد مصطفى طلاس نائب القائـــد العام وزير الدفاع والتي كان مطلعها :
اسرائيل في لبنان
الله اكبـر ما لشمس بـــلادي
لكأنهـــا في مأتـم وحـــداد
والافـق ما للافـق يبدو عابســـا
متجهمـــا متسربـة بســـواد
لبنـان يغزوه عـــدو غـــادر
ويح الشـــهامة اين قوم الضاد

وتهز مشاعره حرب تشرين التحريرية فيصف نسور تشرين بقصيدة عنوانها " نسور تشرين " حيث يقول في مطلعها :
وطني طربـت لصـولة الطيـــار
يرمـي العـــدو بمارج مـن نـــار
وسعدت بالنسر المحلق ينبـري
ليرد كيد الآثـــم الغـــدار
وهتفت للبطـل الذي صـان الحمى
مما أعـد له مـــن الاخطـــار

وما أجمل قول الشاعر في قصيدته " نضال دمشق "
نضالك يا فيحـاء في الكـون خلـدا
فتيهي على الدنيا فخارا وسؤددا
سموت بأهل الفكر والفضل والحمـى
وباركت من يقضي الليالي تهجـدا
وصنت شبابا لا تعصب عندهـــم
فما فرقوا مابين عيسى واحمـــدا

وقد احيل صاحب الديوان علـــى المعاش منذ ربع قرن فنظم قصيدة عنوانها " المتقاعد " حيث قال في مطلعها :
اذا شئت ان تحيا حياة كريمـــة
مجردة عن كـل زيـــف وباطـــل
وتسبر غور الناس دون خديعـة
وتمتحن الاخلاق دون حبائـــل

تقاعد تر الدنيا على غيروجهها
كأنك عشت العمر عيشة غافـــل

والملفت للنظر في شعر اللـــواء تجار انه مليء بأبيات الحكمة التي تصلح لكل مناسبة وزمان فلنستمع اليه حيـــن يقول ببعض أبيات يصف فيها الموسوعـــة الموجزة :
قالوا الحسام سبيلنا لخلاصنـــا
من طغمة الاشـــرار والاوغـــاد
قلت الحسام سبيلنا لكنـــه
رهن بما للفكر مـــن ارشـــاد
فالرأي يرسم للحسام طريقـــه
والفكر خير ذخيرة وعتـــاد

فان ما جاء في هذه الابيات مـــن حكمة تصلح على مر الدهور والعصور ويمكن ان تذكر بمناسبات مختلفة غيروصـــف الموسوعة الموجزة وهو بذلك شاعرنـــا المتنبي الذي ترد في شعره الكثيـر مـن ابيات الحكمة .
واذا كانت هذه العجالة لا تفـــي بحق شاعرنا اللواء عبد المجيد تجار ، فلا بد من ذكر نبذة عن حياته الحافلـــة بالاعمال الجليلة .
ولد شاعرنا الاستاذ عبد المجيد التجار في بلدة دير عطية التابعـــة محافظة ريف دمشق في عام ١٩١٦م واتـــم دراسته الابتدائية في دير عطية والنبك والاعدادية والثانوية في دمشق ، ونـــال اجازة في الحقوق من جامعة دمشق عـــام ١٩٤٩ ، وكان قد عمل في التربية والتعليم معلما ثم انتسب لمدرسة مرشحي ضبـــاط الدرك عام ١٩٤٢ .
استمر في جهازي الامـن والادارة ، حتى رتبة لواء ، وقد تسلم المناصـــب الرفيعة فأصبح محافظا لدمشق ثم محافظا للسويداء وشارك في كثير من المؤتمـــرات الامنية والادارية والمهرجانات الادبيـــة وذلك في جنيف عام ١٩٥٤ ، وفي دمشق عـــام ١٩٥٨ وفي الاردن عام ١٩٦٠ وفي يوغسلافيـــا عام ١٩٨٠
وهو عضو في اتحاد الكتاب العرب منذ مطلع تأسيسه واسهم في كثيـر مـــن الندوات الادبية والامسيات الشعرية وله مخطوط شعري بعنوان " صور وعبر " ، ومجموعة من القصائد يأمل ان يتم نشرها بعد هذا الديوان ان شاء الله .
واجد نفسي بعدما تقدم مشدودا ايضا الى التحدث عن الحكمة في شـــعر صاحب الديوان .. اذ انه لم يأت بقصيدة

خاصة بالحكمة وبنظراته التأملية.. بل بث الحكمة في قصائده على اختلاف انواعها ، وقل ان خلت قصيدة في الديوان من الحكمة ، فقد يجعل حكمته مقدمة للقصيدة ، وقد يختمها بها ، وقديوردها في ثناياها ، واحيانا تراه يجمع بين الامور الثلاثة في قصيدة واحدة.

ولو اردنا ان نخلص بكلمة عن شعر ابي فاروق نقول بان شعره مثل حياته يمثلها عاناه خلال حياته اصدق تمثيل .. وهو صورة لحياته ففيه يتجلى طموحه ونظرته للحياة والثقافة وابائه وشجاعته ، وعقله وكرامته وولاؤه واخلاصه لمن يحب وبغضه لما يكره وفيه يتجلى تشاؤمه وسخطه وغضبه ولا غرو فصاحب الديوان شاعر السيف والقلم .

وشعر ابي فاروق يمثل نفسه وأخص ما تتسم به عاطفته هي الصدق فهو يمدح محبا او مخلصا .

ونلاحظ ان اول ما يميز شعره قوة شخصيته حتى لتبدو شخصيته في كل بيت وفي كل لفظة .. واذا رجعنا الى بناء القصيدة عنده مهما كانموضوعها وجدناه محكما منطقي التسلسل يظهر منه عقل الشاعر المفكر .

وبعد فاننا بانتظار ديوان ابي فاروق الثاني " صور وعبر " كي تعود به الى عبق الشعر العربي الاصيل .

ولا بد من الاشارة هنا الىكلمة صاحب مجلتي الثقافة الاسبوعية والشهرية ، الاديب الشاعر الاستاذ مدحة عكاش التي طالعناها في صدر الديوان والتي تحدث فيها عن ذكريات قديمة جمعت بين الشاعرين ، ذكريات نضال وكفاح في اواخر الثلاثينات في التجهيز الاولى يوم كانا طالبين داخليين يجمع بينهما الشعور بالاسرة الواحدة وتؤلف بينهما ومقاومة الاستعمار والمستعمرين يوم كانت بلادنا الحبيبة تلقى من ظلم الفرنسيين ، وطغيانهم الكثير الكثير .

ويقول الاستاذ عكاش : " واراني تحدثت عن اخي عبد المجيد تجار الاداري ، وأني لأخشى ان يشغلني هذا الحديث عن موهبته الشعرية التي تفجرت ينابيع ثرة ، وفاجأ الناس بقصائد تحمل في طياتها الشعور الوطني الصادق والاحساس المرهف والوفاء لاصدقائه ممن توفاهم الله الى رحمته ، او من بقي منهم حتى كان الوفاء ميزة خاصة يمتاز بها . وقد شفعت له هذه الشاعرية الفياضة ان يعتلي اكثر منابر دمشق فيمهرجانات الشعر ، وان يكون احد الاعضاء العاملين في اتحاد الكتاب العرب .

ولقد قدم للديوان الاديب والشاعر المعروف الاستاذ عبد المعين الملوحي بكلمة شاملة جاء في آخرها : " والخلاصة اننا فيديوان " حنين " نكتشف شاعرا مطبوعا له صفاته الذاتية وتطلعاته القومية وله اسلوبه المشرق ولغته الصافية ، ونكتشف فيه قبل كل شيء انسانا خرج من قرية دير عطية ، وتقلب في مناصب رفيعة كثيرة وسكن المدن الكبيرة ولكنه ظل في قبل كل شيء هذا الانسان البسيط الذي ينقل اليك كل ما يجول في عقله وقلبه من افكار وعواطف لتشترك معه في أفكاره وعواطفه واعتقد انك فعلت ذلك فظفرت بكثير ثمين .

بقي علينا ان نقول بان الديوان من منشورات دار مجلة الثقافة في دمشق صمم غلافه الانيق الدكتور خلدون التجار وقد خط قصائده الديوان الخطاط السيد سهيل سليمان وقد صدر في مطلع هذا العام ١٩٨٧.

حسان بدر الدين الكاتب
دمشق

يـــا أُمّـــي

عبد المجيد النجار

تَفَطَّرَ قَلْبِي بَعْدَ فقدِكِ يا أُمّي ... وضاقَتْ بِيَ الدُّنيا وطاشَ بِها سَهْمِي

بَكَيْتُكِ مِنْ قَلْبِي وَأَدْمَيْتُ مُقْلَتِي ... فَبَاً لِسَهْمِ المَوْتِ كَمْ جُرْحُهُ يُدْمِي

بَكَيْتُ التِّي إِنْ قُلْتُ آهٍ تَأَوَّهَتْ ... وَقالَتْ بِروحِي أُفْتَدِيكَ مِنَ الهَمِّ

تُقَلِّبُنِي فِي صَدرِها وتَضُمُّنِي ... فَأَسْعَدُ فِي ضَمٍّ وأَنْعَمُ فِي لَثْمِ

حَنانَيْكَ يا رَبِّي فأَيْنَ حَنانُها ... يُبَدِّدُ مِن حُزْنِي وَيَكشِفُ مِن غَمِّي

وأَيْنَ رِضَاها وَهْوَ سُؤْلِي ومَطْلَبِي ... يُجَدِّدُ مِنِّي ما تَراخَى مِنَ العَزْمِ

يَسِيرُ مَعِي أَنَّى تَسِيرُ خَواطِرِي ... وأَرْقَى بِهِ حَتَّى أَصِيرَ إِلَى النَّجْمِ

إِذا قُلْتُ مَنْ أَهْلِي فَمالِيَ غَيْرُها ... لَدَرْسِ أُمُورِي فِي تَرَوٍّ وفِي فَهْمِ

فَلَيْسَ غَرِيبًا أَنْ تَقُودَ مَسِيرَةً ... كَبِيرَةُ قَوْمٍ بَارَكَتْ رَايَةَ القَوْمِ

فَفِي كُلِّ جِيلٍ نِسْوَةٌ قَدْ تَجَاوَزَتْ ... مَفَاخِرُهُنَّ الجِيلَ بِالفَضْلِ وَالعِلْمِ

فَمَا انْتَقَصَتْ مِنْ جُرْأَةِ القَوْمِ خَوْلَةٌ ... وَقَدْ ثَأَرَتْ قَبْلَ الرِّجَالِ مِنَ الخَصْمِ

وَهٰذِي هِيَ الخَنْسَاءُ سَادَتْ قَبِيلَةً ... وَكَانَتْ لَهَا فِي الحَرْبِ دِرْعًا وَفِي السِّلْمِ

وَفَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ دُنْيَا مِنَ التُّقَى ... وَمَرْيَمُ تُؤْتَى الرِّزْقَ بِالصَّبْرِ وَالصَّوْمِ

فَمَا الفَخْرُ إِنْ قُلْنَا سُهَيْلٌ مُذَكَّرٌ ... وَلَا العَيْبُ فِي الشَّمْسِ المُؤَنَّثَةِ الِاسْمِ

فَدِفْءُ سُهَيْلٍ لَا يُحِسُّ بِهِ امْرُؤٌ ... وَلَكِنَّ دِفْءَ الشَّمْسِ يَشْفِي مِنَ السُّقْمِ

رَبِيعُ حَيَاةِ المَرْءِ أُمٌّ إِذَا مَضَتْ ... مَضَتْ مَعَهَا دُنْيَا السَّعَادَةِ وَالنُّعْمِ

لَوْ أَنِّي فَقَدْتُ الأَهْلَ وَالصَّحْبَ كُلَّهُمْ ... وَعِشْتُ وَحِيدًا فِي الوَسَاوِسِ وَالوَهْمِ

لَمَا زَالَ جُرْحِي طُولَ عُمْرِيَ نَازِفًا ... لِفُقْدَانِ مَنْ كَانَتْ هِيَ الرُّوحُ لِلْجِسْمِ

إذا ابتسمتْ كانتْ حياتي ابتسامةً ... وإن عبستْ أثقلتُ بالحدَثِ الجهمِ

وإنْ حدّثتْ أصغى لها جلساؤها ... ليستمتعوا بالعلمِ والأدبِ الجمِّ

إذا قطعتْ في رأيها كانَ صائباً ... وإنْ أبرمتْ حكماً فبورِكَ من حكمِ

• • •

عزائي لكلِّ الفاقدي أمهاتهم ... فهمْ شركائي في التفجّعِ واليتمِ

فمنْ بعدهنَّ الكونُ حزنٌ وظلمةٌ ... ويصبحُ طعمُ العيشِ أردى من السمِّ

فما للمنايا تستبيحُ ديارنا ... وما في الحِمى من يدفعُ الخطبَ أو يحمي

تسدّدُ سهماً للضحيةِ قاتلاً ... وما منْ مجنٍّ يتقينا منَ السهمِ

ولا يرجئُ الموتَ المحقّقَ فارسٌ ... ولا حاكمٌ يرعى ويزبدُ في الحكمِ

ولا ما بنينا منْ حصونٍ منيعةٍ ... تطاولُ تيهاً شامخاتِ الذُرى الشمِّ

فمهما اكتشفنا منْ غوامضِ كونِنا ... فنحنُ أمامَ الموتِ كالصمِّ والبكمِ

وَنَمْضِي إلى دارِ البقاءِ كأنَّنا ... نِيامٌ بِدُنْيانا صَحَوْنا مِنَ النَّوْمِ

ويَبْقَى بِدارِ الأَهْلِ والصَّحْبِ رَسْمُنا ... فيَبكيهِ مَنْ يَبْكي ويَرْميهِ مَنْ يَرْمي

(فإنْ لَمْ يَكُنْ إلاَّكَ يارسْمُ ذاكِري ... لَدى الصَّحْبِ إنْ بِنَّا فلا كُنْتَ يارَسْمي)

لِكُلِّ امْرِئٍ يَوْمَ الحِسابِ رصيدُهُ ... إذا نُصِبَ الميزانُ في ساعةِ الحَسْمِ

فيَا سَعْدَ مَنْ غَطَّى الحَياةَ صَلاحُهُ ... ويا بؤْسَ مَنْ لَمْ يَجْنِ مِنْها سِوَى الإثْمِ

فَذِكْرُ امْرِئٍ بالمَدْحِ بَعْدَ رَحيلِهِ ... لَمُخْتَلِفٌ جِدًّا عَنِ الذِّكْرِ بالذَّمِّ

• • •

هِيَ الأُمُّ دُنْيا مِنْ حَنانٍ ورِقَّةٍ ... وقَلْبٌ كَبيرٌ فاضَ بالحُبِّ والحِلْمِ

فَيارَبُّ ما أَحْلَى الحَياةَ بقُرْبِها ... ويارَبُّ كَمْ تَقْسُو الحَياةُ بِلا أُمِّ

تعاريف القدماء للبلاغة

جمع ودراسة: قصي عسكر

مقدمة :

لقد اختلفت أقوال الباحثين القدامى في تعريف كلمة " البلاغة "، فلم يستطيعوا ان يتفقوا على تعريف منطقي واحد يعد أنموذجا ، تأخذ به جميع كتب الادب والبلاغة ، كما اتفق النحويون مثلا ، على تعريف " النحو " تعريفا تراه هو هو في أي كتاب نحوي .

والحقيقة ان كلمة " البلاغة " مفردة مرنة ، يحاول الاديب ان ينصرف بها حسب تفكيره ، وخياله ، كذلك الفيلسوف ، وربما يعرفها آخر من واقع اجتماعي .

وقد دفعني اختلاف الاراء لأن أجمع هذه المقولات من كتب مختلفة ، وان أقف عند بعضها ، خاصة ما أجده يستحق الوقفة ، لكي أدرسه حسب اجتهادي ، ولعلني أكون مصيبا ، وربما أنحاز عن جادة الصواب في رأي ما ، لا عن تعمد ، وعذري في ذلك سعة الموضوع ، وتشتته في بطون الكتب ، مما حدا بي الى ان أبذل غاية جهدي ، لجمع هذا الشتات المتناثر

البلاغة لغة :

بالرجوع الى جذر الكلمة نرى ان " بلغ " المكان وصل اليه ، وكذا شارف عليه ، والبلاغ الايصال ، والبلاغة الفصاحة (١) ، ورجل فصيح أي بليغ ، ولسان فصيح ، اي طلق (٢)

غير ان دخولنا الموضوع من باب اللغة ، بادئ ذي بدء ، يضعنا أمام أمور لايمكن تجاهلها ، منها ان القواميس اللغوية هي من وضع المتأخرين، ثانيها ان التعريف فيها ليس تعريفا اصطلاحيا ، اي علميا ، اذ المعروف ان التعريف المنطقي يراعي بعض المسلمات ، منها أن يكون جامعا مانعا ، لا يوهم السامع ..

ثالث هذه الملاحظات ان البلاغة اختلطت بمرادفتها كلمة " فصاحة " هذا الخلط أثر في الوصول الى تعريف محدد ، ومعين لكلمة " البلاغة " وسبب الخلط ، كما نعرف ، ان الفصاحة جنس قريب للبلاغة .

اللفظ ينقسم الى ماله معنى ، وما ليس له معنى ، والذي له معنى الى قسمين " فصيح " و " غير فصيح " والفصيح الى قسمين " بليغ " وغير بليغ " كما يبينه الجدول الاتي :

اللفظ	
ماله معنى	ماليس له معنى
ـ فصيح	
ـ غير فصيح	غير فصيح
بليغ	غير بليغ

فاذا قلت ، على سبيل المثال ، " تعال غدا " كان كلامك فصيحا ، لكنه غير بليغ ، أما اذا قلت ، " ابتسم القمر " فالكلام بليغ ، بعد ان روعي فيه شرط الفصاحة .

فالبلاغة ، اذا ، نوع لجنس قريب هو الفصاحة ، لكن أصحاب القواميس اللغوية يتجاوزون ، ولا يعرفون البلاغة ، بأنها فصاحة من باب تعريف الجزء بالكل ، الا ان التعريف ناقص من الناحية المنطقية ، وهو يغفل الفصل الذي يعد شرطا من شروط التعريف السليم .

فالخلط في التعبير ـ من الناحية اللغوية ـ أدى الى ان يترك اثره في نظر الادباء والمهتمين بعلوم اللغة العربية ، فلم يستقر رأيهم على تحديد كلمة البلاغة ، فالتبس عليهم اقترانها بكلمة الفصاحة ، لقرب المرادفة ، حافزهم لذلك محاولة التخلص من تحديد شيء مبهم بالرجوع الى أقرب لفظ اليه .

العصر الاسلامي والاموي :

وردت مشتقة الفعل ، " بلغ " في القرآن الكريم ، " هذا بلاغ للناس " (٣) ، ووردت كلمة البيان في قوله تعالى " الرحمن خلق الانسان علمه البيان " (٤) ، بالمفهوم اللغوي ايضا ، فمن المعروف ان البيان نوع من انواع جنسه القريب ، وهو البلاغة .

وقد " سئل النبي صلى الله عليه وسلم : قيم الجمال ؟ فقال في اللسان ، يزيد البيان "(٥) .

سنكون امام امرين مهمين ، الاول علم الجمال ، ليس بمفهومه النظري ، أي البحث الذي اختلف فيه منذ العهد اليوناني الى الان ، وكتبت فيه النظريات المختلفة ، بل ، أين يوجد الجمال ؟ فذهن السائل ، لم يكن منصرفا ساعتئذ الى التفكير في ماهية الجمال ، انما في وجود الشيء الجميل .

الحقيقة الثانية ، ان معجزة الرسول " ص " كانت في القرآن ، وهو شيء متفق عليه ، لأن المجتمع الجاهلي يمثل الانموذج المتكامل للنضج الادبي واللغوي ، الذي تطورت اليه ثقافة العرب .

فاللسان هو الجمال ، وهو البيان اخيرا ، ونحن نفهم ان البيان ظهور ووضوح ، وهو يعني ، بالنسبة لنا ، اصطلاحا ، أحد أنواع البلاغة .

وفي حديث آخر للرسول " ص "" أنا أفصح الناس بيد أني من قريش " .
وقال الامام علي ،في موقف مفاخرة " نحن أفصح وأنصح وأصبح "(٦).

مما سبق نستنتج ان المفاخرة جاءت بكلمة " الفصاحة " جنس البلاغة القريب ، فالرسول " ص " والامام علي يفتخران بـ " أفصح " و ومرد العلة الى ان العصر الاسلامي كان أقرب الى البداوة منه الى التحضر ، والتوكيد على عروبة اللسان يأتي بكلمة قريبة المعنى من طلاقة اللسان العربي ، يتحقق منهامفهوم العموم الشامل ، لكونها حاوية جميع الانواع المختلفة لبلاغة الكلمة .

للسبب ذاته ، كانت الفصاحة المقياس الاول في محاولة ابي بكر لجمع القرآن الكريم فقد " استظهر ابو بكر بطلب الشهود تأكيدا لانه اذا انضمت الشهادة الى الفصاحة الظاهرة ثبت ان ذلك الكلام من القرآن "(٧).

ثم نتوقف في هذا العصر ، عند نصوص حاولت ان تعرف كلمة " البلاغة " وهي بلا شك محاولات بدائية لاتستند الى قاعدة علمية ، او هي أقرب ما تكون الى الفطرة منها الى المنطق .

هذه التعاريف حسب التسلسل الزمني

الامام علي:

النصر بالحجة ، والمعرفة ، بمواضع الفرصة ، ومن النصر بالحجة ان تدع الافصاح بها الى الكناية عنها اذا كان الافصاح اوعر طريقة ، وكانت الكناية أبلغ في الدرك واحق بالظفر (٨) .

الاحنف بن قيس :

الايجاز في استحكام الحجج ، والوقوف عند ما يكتفى به (٩).

عمر عبد العزيز :

البليغ من اذا وجد كثيرا ملأه واذا وجد قليلا كفاه (٣).

ان اول شيء التفت اليه الامام علي هو الحجة التي تعني الاقناع بالفكرة حسب التسلسل المنطقي في محاولة غلبة الخصم بالبرهان ، ثم اللجوء الى الرمز ، ان كان التصريح لا ينفع ، والتوكيد على المعاني غير المباشرة ، كذلك كان رأي الاحنف .

بالطبع لم يأت التوكيد على الحجة اعتباطا ، فالعصر الذي عاش فيه الرجلان كان مثقلا بالاضطراب السياسي ، وظهور الفتن ، وتأسيس الاحزاب ، كل هذه الاحداث تتطلب اعلاما قويا مؤثرا في السامع ، فأية فئة او حزب ، تحاول ان تكسب عددا من الانصار ، لا تحقق نجاحا مالم تراع الحجة في قولها ، لتستمد ديمومتها من انضمام الناس اليها .

هذا عكس ماتراه في تعريف عمر ابن عبد العزيز ، فعهده ، وهو في الحكم ، كان من اكثر الفترات استقرارا لا سيما ، اذا علمنا ان الخوارج ، وهم أشد الفئات تطرفا ، لجأوا الى الهدنة في عهده ، اذا البلاغة برأي الثلاثة هي:

١- الكلام المترابط المبتعد عن المباشرة المقنع .
٢ - الكلام التام .
٣ - الابتعاد عن العي ، والقدرة على الايجاز .

مما مر نستطيع ان نستخلص بعض الملاحظات وهي :

٢ - المحاولة الاولى لجمع القرآن الكريم كانت تستند الى فصاحة الكلام بوجود شهود .
٢ - المفاخرة بين العرب كانت ترد بالفصاحة وليست بكلمة أبلغ .
٣ - التعاريف السابقة شخصية ، والالكان

قد اتخذ اي منها مصطلحا خاصا ، تتفق عليه كتب الادب قديمها وحديثها نظرا لأسبقية التعريف الزمنية .
٤ ـ التعاريف السابقة ركزت على جوانب معينة ، اشتملت عليها البلاغة ، ولم تحط بكل أنواع هذا العلم ، فكأنها تعرضت الى محتوياته ، ولم تفسر ماهيته

العصر الثاني :

في العصر العباسي نشطت حركة الترجمة والتأليف ، فتوسع البحث العلمي ، وقد طالعتنا تعاريف مختلفة للبلاغة ، حاولنا حصرها في عناوين ثابتة كي نتمكن من دراستها دراسة وافية .
هذه الابواب هي :
١ ـ التعريف الشخصي
٢ ـ آراء المجهولين .
٣ ـ آراء غير العرب .
٤ ـ التعريف الاخلاقي ،
٥ ـ التعريف العلمي .

التعريف الشخصي :

ونقصد به التعريف الذي يعبر عن وجهة نظر صاحبه فقط ، ولا يعتد به في الكتب العلمية ، ولا يمكن ان يكون أساسا لأية وجهة نظر منطقية .

١ـ الخليل ابن احمد الفراهيدي :

قال في البلاغة :
ايضاح المعضل ، وفك المشكل (١١)
البلاغة كلمة تكشف عن البقية (١٢)
كل ما أدى الى قضاء الحاجة فهو بلاغة (١٣) .
البلاغة ما قرب طرفاه وبعد منتهاه (١٤)
نلاحظ ان الرجل عرف البلاغة في اربعة مواضع ، بمفاهيم مختلفة ، على ماذا تدل محاولاته ؟ ان فكر الرجل ، بالتأكيد ، لم يكن مستفزا ، على هدف معين لتحديد الكلمة ، فنراها مرة تعني عنده السهولة والابتعاد عن التعقيد ، ومرة الايجاز في الكلام ، او المعنى اللغوي ، ورابعة في تمام المعنى ، وبعد غور الكلمة .
٢ ـ خلف الامر :
البلاغة لمحة دالة (١٥)
الرجل راوية شعر ، حقل اختصاصه يعني الاطلاع الواسع على التراث العربي ، ومن طبع الراوية ان يكون ذواقا لكثرة ما يحفظه ، فهو يعرف البلاغة تعريفا أقرب ما يكون الى الرمز ، لأن الرمز هو اللمحة ، على أننا نعتقد أيضا ان كلمة لمحة ، المقصود بها هنا ، الايجاز في القول ، والابتعاد عن التفصيل في الكلام .
٣ ـ الحسن بن سهيل :

سأله المأمون عن البلاغة فقال : " ما فهمته العامة ، ورضيته الخاصة "(١٦) .
لعلنا لا نكون مغالين اذا قلنا ان التعريف السابق مثار جدل في حياتنا الادبية المعاصرة ، وهو الجدل القائم على السؤال الاتي : بأية لغة نكتب ؟ كيف نوصل الى الجمهور أفكارنا ؟
نحن نعيش في مجتمع يتكون من الامي والمثقف والمتعلم ، فبأي اسلوب تظهر كتب الادب مواضيعها ؟
كيف نكون لغة موحدة لجميع شرائح المجتمع المتباينة ؟
الحقيقة ان الحسن بن سهل تطرق الى الموضوع قبل الف سنة ، فهو وزير ، وموقع وظيفته يلزمه ان يرافق الملوك ، وان يتصل بالشعب ، الملوك تربيتهم تدفعهم الى الترفع عن العامة بالاسلوب والكلام .
أما العامة ، فأسلوبهم في الحياة ، وحديثهم ، أقل شأنا ، فالوزير المعرف ينطلق من حاله هو ، بحيث يلزمه ان يتخذ طريقا وسطا بحيث لا ينفر منه المأمون ، ولا يبعده عن عامة الناس ،
وقد وردت الفكرة نفسها بتعبير مختلف ، فقد " قال سهل بن هارون : لو ان رجلين خطبا او تحدثا ، او احتجا او وصفا ، وكان احدهما بهيا ولباسا... وكان الاخر قليلا قميئا ، ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة ، وفي وزن واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم ..(١٧)
وذا يعني ان الفكر العربي لم يغفل الوضع الاجتماعي ، سواء بالنسبة للطبقة ، او الواقع اللغوي ، اوهيئة المتكلم .
٤ ـ خالد بن صفوان :

ليس البلاغة بخفة اللسان ، ولا بكثرة الهذيان ، ولكنها اصابة المعنى ، والفوز بالحجة (١٩).
انه يعرف البلاغة مستفيدا من تعريف الامام علي والاحنف ، فمثلما نشأت في العهد الاموي عقد سياسية ،

فقد زادت هذه العقد في العصر العباسي، فانصرف بعض المعرفين الى تحليل الامور من وجهة نظر سياسية او فلسفية حسب موقعهم في المجتمع .

٥ - ابن عتيبة :

البلاغة دنو المأخذ ، وقرع الحجة ، والاستغناء بالقليل عن الكثير (٢٠) انها وضوح المعنى والايجاز ، والغلبة في الحجة ، وقد رأينا كيف ان هذه الكلمة تكررت كثيرا في كتب الادب .

٦ - ابراهيم الامام :

الجزالة والاطالة (٢١)
الرجل ممن اهتموابالسياسة ، وقد شغلته احداث عصره ، فراح يكافح من أجل اسقاط حكم ، والدعوة الى اقامة دولة جديدة ، فهو يركز على امرين مهمين :
الاول : فخامة الكلام ، ليجد أذنا صاغية ، تتقبله .
الثاني : الاطالة ، فلم نجد ، قبل ابراهيم الامام من يعرف البلاغة بأنها اطالة ، بل العكس ، عرفت بانها ايجاز في اكثر من موقع ، لكنه صاحب شعارات ، وداعية ثورة ، فالايجاز لا يناسب دعوته وقد يجلب عليها الضرر ، لذلك وجد في الاطالة السبيل لنشر شعارات هذه الدعوة

٧ - العتابي :

قيم الكلام العقل ، وزينته الصواب ، وحليته الاعراب ، ورائضه اللسان ، وجسمه القريحة ، وروحه المعاني (٢٢)
العتابي شاعر ، دافعه الخيال ، يخيل للذي يقرأ هذا التعريف انه امام عبارة شعرية ، لا أمام تعريف ، لذلك نراه ، موضع ثان ، يعرف البلاغة ، تعريفا آخر ، أقرب الى الرقة والخيال ، انظر التعريف الاخلاقي) .

٨ - ابن المعتز :

البلاغة بلوغ المعنى ، ولما يطل سفر الكلام (٢٣).
سنناقشتعريف الشيء بنفسه ، اما الشطر الثاني فالمقصود به الايجاز .

٩ - ابن الاعرابي :

البلاغة التقرب من البغية ، ودلالة قليل على كثير (٢٤).

١٠- عبد الله بن محمد بن جميل المعروف بالباحث :

البلاغة الفهم والافهام ، وكشف المعاني بالكلام ، ومعرفة الاعراب ، والاتساع في اللفظ والسداد في النظم ، والمعرفة بالقصد ، والبيان في الاداء ، وصواب الاشارة ، وايضاح الدلالة ، والمعرفة بالقول ، والاكتفاء بالاختصار عن الاكثار، وامضاء العزم على حكومة الاختيار ، قال : والبلاغة تخير اللفظ في حسن افهام (٢٥).
التعريف الاول مطول يتطرق كغيره الى شرح مواضيع علم البلاغة لا الى ماهية ذلك العلم ، اما التعريف الثاني ،فهو أدق من الاول ، وان كان لا يفي بالمعنى

١١- الكندي :

ركنها اللفظ ، وهوعلى ثلاثة انواع ، فنوع لا تعرفه العامة ، ولا تتكلم به ونوع تعرفه وتتكلم به ، ونوع تعرفه ولا تتكلم به ، وهو أصمدها (٢٦) .
الرجل فيلسوف معروف ، ولابد ان ينسحب تخصصه على أقواله ، فتعريفه ما هو الا نفحة فلسفية ، ما الذي لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ؟
انه الفلسفة ، ولا شك ، الفكرة الثانية هي الكلام الوسط ، اما النوع الثالث ، فهو البلاغة المتمثلة في السهل الممتنع الذي لا تقدر عليه الافئة خاصة .

١٢ - ابن المقفع :

اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الاشارة ومنها ما يكون شعرا ، ومنها سجعا ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها مايكون جوابا ، ومنها ما يكون الحديث ومنها مايكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون خطبا ، ومنها ما يكون رسائل ، فعامة هذه الابواب الوحي فيها والاشارة الاسلوب السابق يذكرنا باستطراد ابن المقفع في كليلة ودمنة ، فكلنا يعرف من قراءة قصصه ، كيف انه يستطرد من قصة الى ثانية ، ليؤكد فكرة سابقة، فبعد كل هذا التطويل ، والتقسيم ، يقول، أخيرا ، الايجاز هو البلاغة .

١٣ ـ ابو منصور الثعالبي :

قال بعضهم : البلاغة ما صعب على التعاطي وسهل على الفطنة ، وقال : خير الكلام ما قل ودل ، ولم يمل ، وقال : ابلغ الكلام ما حسن ايجازه ، وقل مجازه ، وكثر اعجازه ، وتناسبت صدوره واعجازه ، قال : وقيل البليغ من يجتني من الالفاظ نوارها ، ومن المعاني ثمارها (٨).

١٤ ـ الحسن بن وهب :

والبليغ المحكوم له بالبلاغة ، من اذا حاول صيغة كتاب ، سالت من قلمه عيون الكلام من ينابيعها ، وظهرت معادنها وندرت من مواطنها من غير استكراه ولا اغتصاب (٢٩) .

لقد عالج الحسن بن وهب المسألة من زاوية واحدة ، ونعني بها " التكلف " فالبلاغة ، عنده هي ماجاء على السجية ، منطلقا في حكمه من خبرته في مجال الكتابة ، فهو كاتب رسائل مشهور .

من الممكن ان نقول ، بعد كل هذا ان هذه التعاريف الشخصية جاءت على لسان رجال اختلفت حقول اختصاصهم ، وكل منهم نظر الى الامر من زاوية معينة ، لأنهم كانوا يشكلون نماذج معينة من مجتمعهم ، منها :

١ـ اللغوي ،
٢ ـ راوية الشعر .
٣ ـ الوزير .
٤ ـ رجل السياسة .
٥ ـ الشاعر .
٦ ـ الفيلسوف
٧ ـ القاص
٨ ـ الكاتب

وقد ترك حقل الاختصاص الوظيفي اثره في التعريف ، بلا شك ، كما رأينا في تعريف الكندي مثلا .

٢ ـ آراء لمجهولين :

أوردت كتب الادب ، آراء في البلاغة ،لم تنسبها لقائل معين ، تناثرت في مواضع مختلفة ، نقتطف منها : قليل يفهم ، وكثير لا يسأم .
اصابة المعنى وحسن الايجاز.
معان كثيرة في الفاظ قليلة .
اصابة اللفظ واشباع المعنى (٣٠).
البلاغة ما اجتيازه فساده (٣١)
الايجاز في غير عجز والاطناب من غير خطل (٣٢).

وقيل لبعض الجلة : ما البلاغة ؟ فقال : تقصير الطويل ، وتطويل القصير، يعني بذلك القدرة على الكلام (٣٣).

من الواضح ان الاراء السابقة ، انصرفت الى جانب واحد ، هو الايجاز ، وكأن البلاغة انحصرت في نوع واحد من انواعها ، والذي يؤلف جزءا من علم المعاني .

هذا التصور له سبب وجيه ،فالعربي ابن بادية ، والصحراء قاسية بطبعها ، حادة خشنة ، فعندما تحرق الشمس اللاهبة اي فرد ، ويدخل خيمته ، لا يقول : اعطني قدح ماء ، بل يقول : ماء ، يضيق نفسه ، لا نراه يقول :ما اشد حرارة الشمس ، بل يقول : الهاجرة .. وهكذا ..

٣ ـ تعاريف غير العرب :

نقلت كتب الادب القديمة آراء الاجانب في البلاغة ، ان هؤلاء المعرفين ينطلقون من واقعهم اللغوي ، وظروف نشأة لسانهم ، والافكار المتداولة في مجتمعهم .

ان باحثينا الاوائل نقلوا تلك الجمل ، محاولين ان يظهروا هذه التعاريف قريبة من فكرنا ، وكأنها تنطبق على لغتنا ، بينما نحن لانعرف ، بالتأكيد ، طبيعة اللغة الفارسية ، او الهندية او اليونانية ، علينا ان نلاحظ ان هذه الاراء انتشرت بعد نشاط الترجمة ، اي ان الباحث العربي حاول ان يعرب النقص المترجم فكرا ولفظا ، لكي يطبقه على بلاغتنا ، فمحاولته ليست للمقارنة .

الرومي : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة (٣٤).
الهندي : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الاشارة (٣٥)
الرومي : البلاغة وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الاشارة (٣٦).
الفارسي : هي معرفة الفصل من الوصل (٣٧) .
ارسطاطاليس : البلاغة حسن الاستعارة (٣٨)
انو شروان لبزجهر : متى يكون الغبي بليغا ؟ فقال : اذا وصف بليغا (٣٩)
الهندي : هي البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم ان يدع الافصاح بها الى الكناية عنها اذا كان الافصاح ، اوعر طريقا ، وربما كان الاطراق عنها ابلغ في الدرك ، واحق بالظفر (٤٠).

أكثر التعاريف المارة الفاتا للنظر التعريف الاخير الذي ورد على لسان الامام علي وذلك اعتقده ان نسبته لاهل الهند فيها شيء من الجور ، لان الهنود اهتموا بالفلسفة منذ القدم ، والفلسفة تقوم على الحجة والمنطق ، والمعروف عن الامام علي ، انه تطرق الى امور فلسفية لعلمه الواسع ، ولواقع عصره ، فنسب التعريف السابق اليه مرة ، والى الهنود مرة اخرى .

والواقع ان هذه التعاريف ، كما قلت ، عربية ، مائة بالمائة ، نسبت عن طريق الخطأ وربما التعمد الى لسان قوم يختلف عن اللسان العربي ، ولا ادل على ذلك من ان التعبير الواحد قد ينسب الى جنسيتين مختلفتين ، كما قرأناه من النصوص .

٤ – التعريف الاخلاقي :

نعني به التعريف الموضوع لغاية تعليمية لا غير ، وهو كالتعاريف السابقة ناقص لانه يتطرق الى جانب واحد من جوانب علم البلاغة .

١– بشر بن خالد :

البلاغة التقريب من المعنى البعيد ، والتباعد عن خسيس الكلام (٤١)

٢ – عمرو بن عبيد :

ما بلغك الجنة ، وعدل بك عن النار .

٣ – العتابي :

البلاغة تصوير الباطل في صورة الحق(٤٣) المحوران الاول والثاني لا يشكلان اية اهمية ، لذلك نتوقف عندهما قليلا ، فبشر يدفعه الهدف الاخلاقي الى الابتعاد عن الالفاظ المبتذلة ، والدعوة الى الالتزام بالفكر الهادف ، ومحاولة تقريب ما صعب على السامع .

اما عمرو فتستهلك تعريفه الغاية الاخلاقية ، وكأنه يضع الخطوط العامة للسلوك الانساني ، فلو حذفنا كلمة " البلاغة " ووضعنا بدلها " العمل الصالح " لاستوفت الجملة معناها دون اخلال ببنيتها .

غير ان التعريف الثالث أقرب الى الفلسفة ، وبالذات الفلسفة السوفسطائية ، التعريف يضم ثلاث كلمات فقط هي : التصوير ، الباطل ، الحق ، كلمة واحدة مفردة ، وكلمتان من كلمات الاضداد

البلاغة = تصوير
حق باطل

التقاء الاضداد = اخذ كل ضد محل الضد الاخر .

قلنا – قبل قليل – ان العصر عصر علم وبحث وترجمة ، ولا بد ان تتسرب الى المهتمين بادب ذاك الزمان بعض الملامح الفلسفية ، لمن ترجم لهم من الامم الاخرى ، القيم ضائعة عند السفسطائيين ، والجدل عندهم يلبس ثوب الخطأ والصح ، حتى يغلب المتحاور صاحبه وان كان الاخير على يقين ..

لا بد ان العتابي قد تأثر برأي هؤلاء ، يزداد برهاننا حجة ، اذا علمنا ان اصل السفسطة في اللغة اليونانية كانت تعني معلم البلاغة .

لتوضيح الامر ، نقول ، حين يلبس الباطل ثوب الحق ، والخير لباس الشر ، او القبيح رداء الحسن ، يبدو في العمل الفني مستساغا ، مثال على ذلك ، مشهد الكلب الميت يقزز النفس ، لكن الرسام او الشاعر قد يصوره بعمل نستسيغه ، وننعم النظر فيه بلذة وشغف

يحق لنا ، بعد ان عرفنا ابعاد الرأي الاخير ، ان نقول انه تعريف مستمد من فلسفة السفسطائيين ، ومتأثرة بالفكر اليوناني القديم .

٥ – التعريف العلمي :

تكاد هذه التعاريف تكون أفضل ما انتهى اليه البحث في علم البلاغة ، وان كنا لا نستطيع ان نقر تعريفا واحدا منها ، يكون الاساس العام الذي نأخذ به على انه حقيقة لا تقبل الجدل ، وان تحقق الشرط العام في التعريف الاخير كما سنرى فيما بعد .

١ – ابو هلال العسكري :

سميت البلاغة بلاغة ، لانها تنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمه ..
وتسميتنا المتكلم بليغ توسع ، وحقيقة ان كلامه بليغ (٤٤).
يستفيد المعرف كما نستشف من النص من جذر الكلمة اللغوي ، ان الكلمة تتطور وحين تنتقل من معنى الى اخر ، يجب أن يكون هناك ربط بين المعنى الام والجديد ، وما دام " البلاغ " هو الوصول ، او مقاربة الوصول ، فالبلاغة اذا الوصول الى القلب ، ولنقل ماشئنا

في الكلام الذي يصل الى القلب : الفصيح، الجميل ، المتناسق ..

غير ان ابا هلال العسكري يعرف البلاغة في موضع اخر :
رجل بليغ : اذا كان يبلغ حاجته بكلام حسن الصورة مقبول العبارة (٤٥).
وفصيح : اذا كان يفصح عن نفسه بلفظ حسن فخم .
انه يعود ، ويعرف الشيء بنفسه ، البليغ بليغ ، والفصح فصيح ، وتعريف الشيء بنفسه ، ـ كما تعلم ـ ليس علميا وان كان المعرف واضحا .
التعريف الاول اكثر دقة ، ولعل الرجل : ألف " الصناعتين " بعد " التلخيص " .

٢ ـ ابن قدامة :
البلاغة ثلاثة مذاهب : المساواة وهي مطابقة اللفظ والمعنى لازائدا و لا ناقصا ، والاشارة وهي ان يكون اللفظ كاللمحة الدالة ، والتذييل وهو اعادة الالفاظ المترادفة على المعنى الواحد ، ليظهر لمن لم يفهمه ، ويتأكد عند فهمه (٤٧) .
مما يعاب على الرأي السابق طوله المفرط ، فمن شروط رأي ان يكون قصيرا لكي يفهم ويحفظ والعيب الثاني هو ان هذه العبارات تشرح ابواب البلاغة المنضوية تحت علومها ، والابواب التي تطرق اليها ابن قدامة هي المساواة ، والايجاز ، والنشر .

٣ ـ قدامة بن جعفر :
القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام ، وحسن النظام ، وفصاحة اللسان (٤٧).
الكلام السابق هو اقرب التعاريف الى التكامل ، والذي مهد الطريق لافضل رأي قيل في البلاغة من قبل القزويني .
وبامكاننا ان نتلاعب بالكلام قليلا ، ليكون الرأي اكثر علمية ، فنقول :
البلاغة هي القول الفصيح المتناسق المحيط بالمعنى المقصود .
فالقول الفصيح : جنس قريب للبلاغة .
المتناسق : يخرج من كلامنا الكلام الفصيح غير المتناسق لان الفصاحة قد تكون في المفردة ، وقد تكون في الحجة .
المحيط بالمعنى المقصود : يخرج ماعجز عن التعبير ، ويدخل فيه المعبر عن معناه بقدره ، والموجز المعبر عن المعنى ، واللمحة الدالة .

٤ ـ القزويني :
واما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته (٤٨).
واما فصالحة الكلام فهي خلوصه من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات، والتعقيد مع فصاحتها (٤٩).
ان تعريف القزويني اكثر تلك الاراء وضوحا ، وتكاملا ، لانه استطاع ، ان يستوعب رأي من سبقه ، وان يكشفه ، اضف الى ذلك ان وقته متأخر عن الذين سبقوه ، فقد توفي الرجل عام ٧٣٩ ، هـ ونحن نعرف ان العامل الزمني هوتراكم خبرات لاجيال متعددة ، فكانت ثقافة القزويني ، نظرا لذلك العامل السبب في استيعاب رأي منهجي واضح وقصير للبلاغة.
الكلام البليغ يطابق مقتضى الحال .
لنرجع الى القاعدة المنطقية .

الكلام

فصيح — غير فصيح

مطابق للحال

غير مطابق

والاحوال التي نقصدها هي :
التعريف : التنكير ، الابتداء ..الخ (٥٠).

الخاتمة :
كانت تلك اهم النماذج المختارة التي حددت مفهوم البلاغة ، وقد رأينا ان من ادلى بدلوه ، اما ان يكون شخصا بعيدا عن الادب ، فرض عليه ظرفه، ان يقول كلمته في المصطلح حسب موقعه السياسي او الاجتماعي او الفلسفي الى غير ذلك، وهناك من ابدى رأيه بالرغم من تخصصه في حقل الادب ، ولعل الادب ، كان حرفته ، لكنه لم يوفق ، حتى استقر بين ايدينا تعريف القزويني الذي حدد فيه مفهوم تلك الكلمة ، لكننا نعود ، ونقول ، لنذكر ، ان هذه الكلمة ، امتدت من حيث السعة بحال ، لا يستطيع ان يخصص سماتها الاساسية رأي ثابت متفق عليه .

الهوامش :

١ـ الرازي ، مختار الصحاح ، مادة "بلغ" كذلك المنجد .
٢ ـ المصدران السابقان ، مادة "فصح "
٣ ـ اية ١٤ من سورة ابراهيم .
٤ ـ اية ٣ سورة الرحمن .
٥ ـ ابن رشيق ، العمدة ٢٤١/١ ، ت محمد محيي الدين عبد الحميد .

٦ ـ ابن ابي الحديد المعتزلي ، شرح نهج البلاغة / ٢٨٥/٨ ، ت محمد ابو الفضل ابراهيم ٠
٧ ـ المصدر السابق ٢٢٥/١٧
٨ ـ المصدر السابق ٢٦٥/٢٠
٩ ـ ابن عبد البر ، بهجة المجالس ، ١٠٨/١ ط مصر ٠
١٠ـ ابراهيم بن عبدالمدبر ، الرسالة العذراء ، ص٤٦ ، ت زكي مبارك ط ١ ١٩٣١
١١ـ ابن عبدربه ، العقد الفريد ، ٢٤٢/٢ ت محمد ابو الفضل ابراهيم ٠
١٢ ـ العمدة ٢٤٢/١
١٣ ـ الرسالة العذراء ص ٤٨
١٤ ـ العمدة ٢٤٥/١
١٥ ـ المصدر السابق ٢٤٢/١
١٦ ـ الراغب الاجهاني ، محاضرات الادباء ٥٨/١ ، ط مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦١
١٧ـ الجاحظ ، البيان والتبيين ٨٩/١ ، ت عبد السلام هارون ، ظ لجنة التأليف ١٩٤٨
١٨ـ العمدة ٢٤٥/١
١٩ـ الرسالة العذراء ، ص٤٦
٢٠ ـ المصدر السابق ، ص٤٦ ٠
٢١ـ٠ العمدة ٢٤٥/١
٢٢ ـ المصدر السابق ٢٤٧/١
٢٣ ـ المصدر السابق ٤٢٦/١
٢٤ ـ المصدر السابق ٢٤٦/١
٢٥ ـ المصدر السابق ٢٤٧/١
٢٦ ـ المصدر السابق ٢٤٧/١
٢٧ ـ المصدر السابق ٢٤٣/١
٢٨ ـ المصدر السابق ٢٤٦/١
٢٩ ـ العقد ٢٢٧/٤١ ـ ٢٢٨

٣٠ ـ العمدة ٢٤٢/١
٣١ ـ محاضرات الادباء ٥٨/١
٣٢ ـ المصدر نفسه والصفحة ، البيان والتبيين ٩٧/١
٣٣ ـ العمدة ٢٤٥/١
٣٤ ـ البيان والتبيين ٨٨/١
٣٥ ـ المصدر نفسه ، والصفحة
٣٦ ـ المصدرنفسه ٧٥/١ـ ٧٦
٣٧ـ الرسالة العذراء ص ٤٤ ، البيان والتبيين ٨٨/١
٣٨ ـ الرسالة العذراء ص٤٦ ، العمدة ٢٤٥/١
٣٩ ـ الرسالة العذراء ، ص٤٦
٤٠ ـ المصدر نفسه ، ص٤٥ ، البيان والتبيين ، ٨٨/١
٤١ ـ الرسالة العذراء ص٤٦
٤٢ ـ المصدر نفسه ص٤٧
٤٣ ـ المصدر نفسه ص٤٧ ، ونسب هذا التعريف لغير العتابي ، العمدة ٢٤٧/١
٤٤ ـ ابو هلال العسكري ، الصناعتين ص٦
٤٥ ـ التلخيص ١١٦/١
٧
٤٦ ـ محاضرات الادباء ٥٩/١
٤٧ ـ نقد النثر ص٦٦
٤٨ ـ الايضاح ، ص٢٨٠ ، ت محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب ، ط ٤
٤٩ ـ المصدرنفسه ، ص٧٤ ٠
٥٠ ـ المصدر نفسه ، ص٨٠

الشعر مدينة الاحلام «٣»

والمسرح.. مرثاة للجنون. وعصفرة للحب

محمد زهير الباشا

عاد الي صديقي (س . ج) وهو – مقطب الجبين – غاضبا متأجج النبرات ، لكنه لم يطل ، وكأنه عثر على ما يفكك الغاز غضبه وفورة ألفاظه :

– إن أضخم ما أعانيه هو سوءالتفاهم مع هذا الشعر ...

فأنا لا احاربه ولا أدينه ولا احاول أن أتغلب على فنه غير المدرك ، أنني أعتبره مقطوعة ادبية فلا أرضي أحدا ..

أضعه في زمرة النصوص الادبية فيسخط أهل هذا الشعر ودعاته وجزاوّه ومريدوه ..

– قيل يا صاحبي : انه على المتأدب أن يحفظ وينسى ما يحفظ من ديوان العرب، صديقي : هل لك ان تسأل واحدا فيم اذا، اطلع على هاشميات الكميت ..؟ او قرأ مستمتعا بخمريات ابي نواس .. واستسلم لصوفية في فن القول عند ابي العتاهية وزهدياته وبساطته ؟

– دعني أتمم عنك .. فلعل الحديث يطفيء ظمأ – الروح – وأشاركك يا صديقي ، وأراهن ان احدا من هؤلاء لم تسبح أخيلته مع تشبيهات ابن المعتز .. ولم ترتو روحه من ديباجة البحتري ..

صديقي : أنسيت حجازيات الشريف الرضي .. الاربعين ..؟

– اذن .. ما الذي قريء .. وما الذي لم يقرأ ؟ .. ومن قرأ واستوحى ؟

صديقي : – لا تتعب نفسك .. بعضهم يظن أنه ليس بحاجة الى افكار ولا الى تجارب القدماء ولا الى قصائدهم – الغراء .. يريدون اسماءهم على غلاف الديوان .. ثم الديوان .. ولأن الشهرة كالمسمار لا يغرز الا بتوالي الطرقات .. وهذا سوء تفاهم أليم أليم ..

– وما الذي يرضيك .. في هذا اليوم؟ من نظم الشعر أو ارتجاله ؟

صديقي : ان تكون للشعراء مدن زاخرة ممتلئة .. يصرخ في شوارعها واطيافها تلمس في ابياته شلال الابدية .. يخدم ذرات الارض .. يرتفع مع المأساة . .... وبالمأساة ويعقمها .. فتدمع العيون ، وتدمى ويزين لنا التفاؤل فترقى به الاحاسيس ومعه المشاعر كلها كم كان الشريف الرضي رقيقا عفيفا :

– الماء عندك مبذول لشاربه
وليس يرويك الا مدمعي الباكي

صديقي : ما زلت أعاني من سوء التفاهم اكثر .. كلما اطلعت على امثال هذا الشعر الاكرم والانور في هذا العصر : عصر اليقظة والصحوة ..

– لانك لا تجيد لعبة الاصفار .. كما يجيدها العمالقة الكبار ..

صديقي : مثلا .. مثلا .. مثلا .. لاتخرجني من متاهات الاشعار الى ملاعب الاصفار . . رويدك .. يدغدغون احلامنا بالحلول . . ويرسمون سلة مزخرفة وثانية مزينة وثالثة تجمع ولا تطرح .. ورابعة تحصي الفوائد ولا تربح ..

صديقي : تحدث بصوت اوضح .. وبرموز شفافة ..

– في هذه : المسلة .. يا صديقي .. الاصفار هي الحلول .. تجويع الشعوب الافريقية ، فبعد ان كانت افريقيا مصدر ارزاقهم ، باتت تشكو من الجوع والمرض والتشريد .. انهيار افريقيا معناه الفتك بأرضها وسكانها بأساليب لعبة الاصفار منها : الجوع والمرض والتشريد والا .. أمارأيت مصير بوكاسا بعد ان أمدوه ثم أمدوه

بالذهب .. وأخيرا فضحوه واوصلوه بللحالتين الى درجة الصفر المساوية للحل والهدف .
واعتبر اليوم - هدية مسمومة - ففي ملفه احدى عشرة تهمة - يعني احد عشر صفرا . . والاغرب انه متهم بأنه آكل لحوم البشر، وتعذيب الاطفال مما ادى الى وفاة بعضهم، لعبة الاصفار في الانواء العفنة يتقنها الكبار ويتساقط على أقدامهم غريبوا الاطوار .. وعاد وهو يظن ان استقبالات حافلة منظره بعد ان عجز عن تسديد فاتورة الهاتف والكهرباء .. فاستسلم للصفر من جديد .

صديقي : مزعجة لعبة الاصفار هذه .. ..
فلمنستنجد بقول من حجازيات الشريف فما احلى مواعيده ، واعذب اشواقه ..
وعد لعينيك عندي ما وفيت به
يا قرب ماكذبت عيني عيناك
عندي رسائل شوق لست اذكرها
لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

- كنت اظن انك تفضل شعر النواسي في تصويره الخمرة ، وهيامه بها هياما لم يسبق احد الي مثل ماصوره .. فالارض - اليوم في عصر الليزر - ليست بحاجة الى طوفان - بل هي بحاجة الى الجرار والخوابي من الخمرة لتنسي الانسان وقد صنع مأساته بارادته وعلمه ووعيه فأبو نواس يقول :
ما زلت استل روح الدن في لطف
واستقي دمه من جوف مجروح
حتى انثنيت ولي روحان في جسد
والدن منطرح جسما بلا روح

صديقي : اني ازداد ادراكا في حل مسألة - الاصفار - التي تمثل انعدام الوزن . . فهل استوعبنا الهتاف العنصري في مدينة السلام :
(الموت للعرب)
وهل تزداد الكلمات الا بحثا عن كلمات مضادة وشارون يصرح :
" ان قضية بناء هيكل سليمان على انقاض المسجد الاقصى ليست موضع جدل وهي مسألة وقت فقط " .
- انه التساقط المريع للنفس البشرية .. اذا انعدمت الاوزان والقيم ونحن نتسارع ونتزاحم لمعرفة مافي السلة من حلول ولعبة الاصفار ..مجهدة .. مضنية ..تسير في دروب شائكة ..
صديقي : لا يتقنها الا الكبار الكبار .. وها أنذا اضع امامي الحل الاسهل ، الا ، وهو الانغماس كليا في شعر ابي نواس ودنانه ، والحل الاقسى . . ان افقد هذا العقل نتيجة - انعدام الوزن ..
= وهل تظن نفسك وحيدا على الارض تعيش ،، لتفقد توازنك ؟ اين قدماك ؟ ابحث عنهما لتعلم اي طريقة تسلك غدا ..
فلست على القمر تسرق حجارته ، ولست موغلا باعماق البحر .. لتنهب خيراته . . البحر يغضب لكنه لا يستسلم .. والقمر يبتسم - كالجوكندا .. لكنه ثابت في فلكه ..
صديقي : فمند ان وضعت يدي على نظريات هيغل ازدادت المتاهات في آرائي .. ثم التجأت الى جان جاك روسو .. الذي احالني (وبهدوء نسبي) قائلا : غريب امركم ياعرب .. ليس في فكرنا كله ما يوازي ابن خلدون وابن سينا وابن الهيثم ..
فاستشهدت له بنظريات آدم سميث ، وفرويد ويونغ فاضطربت نظراته .. وقال لي : لا تتردد كما السياسة في البيت الابيض . . ولا تماطل ولا تخجل .. عد الى ارضك وما أنجبت ..
- ليتك سمعت صيحة شرف البنت وقدمثله عود ثقاب يلتهب مرة .. أتدري .. كم أحرق البيت الابيض من عيدان ..
صديقي : لكن الاعجب ما لم تسمعه بعد . . كيف تباهي الفرد في الصين بربطة عنقه ، فجعلها تتدلى فوق القميص بارزة بالوانها وحجمها ، وابتسم التجار لهذه - المزحة - الفنية ..
- وما الذي حدث يا ترى بسلة الحلول بعد ان تركناها ومعها كل المتناقضات والمعاكسات في تقاطع الشوارع الكبرى ..
صديقي : علينا ان نتقن الهروب من غمزة صاروخ مدمر ، او مغازلة عابر للقارات ، ولتوزع في المدن .. مدن الاحلام - مرايا محدبة ومقعرة لترد هجمات اشعة الليزر ، المحرقة ذات الفواجع البركانية ..
- وكيف ضاعت الفاسقة مع مشرف البنت ..
صديقي : لدى انشادها معلقة المصارف الكبرى ..
- انسيت . . انت .. قضية انعدام الوزن، ولعبة الاصفار ..
صديقي : لا انساها الا اذا خيمت في المسرح وارتاحت على مقاعد اهل الفن .. حينئذ لا تفرق بين ايجابيات الفن المركب ولا سلبياته ..
- وشر البلية ما يضحك اذا غابت عنا - التراجيديا التاريخية والكوميديا العالمية والنصوص المحلية ..
صديقي : أنا .. أفضل العودة الى التنقيب في مجالي التراث .. على الرغم مما اراه من ادعاءات تود محو معالمه باسم الحداثة والمعاصرة حتى بات التراث : مستباح الحرمات ..

ـ لأنهم لا يفرقون بين الغث والسمين..
صديقي : بل ويضيقون عليه ويحشرونه بنظرياتهم وفق عصر الصواريخ لا وفق العصر الذي ظهر وابدع وتكون ..
اذن يجب ان نستلهم ونستوحي ونختار ونشذب ليزداد التصاقنا بالارض التي انجبت ابن رشد والفارابي والمتنبي وسالفهم قحطان وعبد شمس ونزار ومعد ، و مناف ..
صديقي : ولعلك تكلم معي على هذه المناظرة التي رسمها التاريخ العربي بالاندلس حادثة بين طياته لتعرف الى اي مدى كان اليهود يتلاعبون بمقدرات الشعوب وأموالها وحياة أبنائها .. فاقرأ وتوكل ما اورده كتاب (نفح الطيب) ، (الجزء الرابع ،) (ولا تنظر الى الماضي بغضب :

صورة اندلسية ـ في القرن الخامس الهجري

اليهودي شاليب والمعتمد بن عباد :

شاليب : الجزية ـ يا مولاي ... الذهب يا امير البلاد .. الذهب اولا .
المعتمد : يا نذير الشؤم .. لم يرسل ملك الجلالقة سواك .. يا لعنة الدهر .. خذ .. خذ هذه الاموال .. انه اتفاق مع الملك وليس جزية يا شاليب .

شاليب : اتفحصها واعدها واطمئن عليها . ما هذه الاموال يا مولاي .. انا .. انا لآخذها بمثل هذا العيار .. يا مولاي .. انها قطع خليط من نحاس .. فأين الذهب

المعتمد : انت تعدها وتأخذها لتوصلها وملك الجلالقة يقبلها لا عليك يا شاليب ..لا عليك .. هذا ما اتفقنا عليه يا شاليب .

شاليب : مولاي .. يظن ملك الجلالقة اني بدلت بالجزية عيارا من الذهب لا يرضاه

الملك .. وانا رسول صدق ومؤتمن . . وأود ان أذكرك يا مولاي انياتفقت مع الملكان تكون القطع الذهبية مشجرة ..

المعتمد : خذ الاموال كما هي والا ..

شاليب : أنا لست فيحالة تهديد .. لاعلي ما انا الا رجل موثوق يا مولاي ، ومعي اصحاب الملك شهود على ما اقول .. اني استرد ديوني يا مولاي ..

المعتمد : خذ الاموال .. يا لعنة الدهر والا ..

شاليب : لا تغضب يا مولاي .. في العام القادم يامولاى .. لا ادري ما سأخذه منك ربما .. ربما .. يفضل ملك الجلالقة موارد البلاد كلها ، ربما ، وأنا لا اقبل الا الاموال بدنانير ذهبية مشجرة ..
المعتمد : لسنا ندفع ديونا .. وانما اتفاقا .. يا شاليب. فهل فهمت .. املا؟ ايها الجند .. اسجنوا اصدقاء اليهودي .

شاليب : وانا تعطيني القطع المشجرة يا مولاي ..

المعتمد : انت .. ايها الجنود ..اصلبوا اليهودي اللعين ..

اتظن موارد البلاد كلها ستكون لك ولمن أرسلك ..؟

شاليب : لا .. لاتفعل يا مولاي .. دعوني.. فأنا آخذ نصف هذه الاموال .. أفتدي منك بزينتي مالا .. مولاي .. ما أنا الا

المعتمد : انت اللعنة الابدية .. فوالله لو اعطيتني العدوة والاندلس ما قبلتهما منك .. خذوه ..

شاليب : أأصلب .. يا ملك الجلالقة.. .. فماذا جنيت .. يا امير .. ماذا جنيت ؟

*

أرأيت أيها الصديق .. كيف كان يسعى شاليب الى جمع الذهب في سلته ـ التاريخية ـ فيتقن بذلك لعبة الاصفار مع العمالقة الكبار .

محمد زهير الباشا

يا حامل الشوق

شعر: شفيق عبد الخالق

يا حامل الشوق أنساما معطرة ... ثملي بكل رطيب الند موّتلق
يا رائد الادب الراقي ومشبعه ... بالفن ، باللون ، من اسلوبك اللبق
نريد سكناك في دنيا جوارحنا ... فاختر مكانك بين القلب والحدق

*

نعمان هذي مغانينا وعصبتنا ... هذا نتاج دوالي فكرنا الارق
عين على الوطن المجروح ساهرة ... يقظى وعين تعاني لهفة الحرق
مجامر الشوق قدت من مشاعرنا ... شعرا، رقيقا كأنداء الصباح نقي
ضفنا ممالك شعر من خواطرنا ... حربا على كل مشبوه ومرتزق
وقد عشقنا الطوى كالطود معتصم ... بالكبرياء ، وطعم الذل لم نذق
وكم صبرنا على ضيم يؤرقنا ... فقد كبرنا ولم نسقط بمنزلق
وقد حفظنا حروف الضاد سالمة ... في عزة النفس لا من عيشنا الغدق
وهل حيينا واشباح الغنى قلل ... الا بفضل جهاد الكد والعرق
أنكتب الغزل الفاني بغربتنا ... وأهل لبنان بين النار والحرق
وتحرق القدس والاوطان سائبة ... وسيف " يهوه "فوق الرأس والعنق
وهل تعود ذرى الجولان سالمة ... ومجدل الشمس بين الشك والقلق
تحدت الموت وامتدت سواعدها ... رغم الصعاب ، وطالت هامة النزق
أمزقت ثورة التحرير واندثرت ... حلماتناثر اشلاء من المزق
وبهجة العلم الخفاق ذابلة ... وما تبقى به بعض من الخرق
وفتية وحدود الثأر تحدجها ... لم يبق في دمها شيء من الرمق
ولا الفيالق سارت من مواقعها ... تقصي شرور العدى بالسيف والدرق

وذا دخيل وللشذاذ أوسمة ... وذا شريد على وجه العراء شقي
والبائعون كرامات الحمى زمر ... لهم حوانيتهم في كل مفترق
على التحرر لم تزحف فوارسنا ... وفي الفرار زمام الخيل في السبق
نفرت والامل المجروح يهزأ بي ... لم يبق في الساح غير الدف والبزق
هذرا فانا غلاة في صراحتنا ... بغير كوكبة الاحرار لم نثق
والنصر والوحدة الغراء أمنيتي ... والارض والوطن المعبود معتنقي

*

يا رائد الحرف كم اوليتنا شرفا ... مذ صرت للحرف فوق العطر في الحبق
ياحامل الشوق من" عكاش " من بردى ... ومن " سعيد " كريم الطبع والخلق
ومن "أمين " على الاداب مؤتمن ... من"مزهر" الروض من طيب الندىالعبق
ونخبة الادب الراقي ومعدنه ... الصافي ومشعاله في كل منطلق
مرحى لكل اديب سيفه قلم ... أمضى من السيف في دمغ الاذى الحنق
لولا اصالة هذا الحرف في دمنا ... كدنا نضيع معا في زحمة الطرق
لولا محامد تلك الارض ما طلعت ... شمس المعالي ولا الاقمار في الافق

شفيق عبد الخالق ـ البرازيل

١ـ اشارة الى الاستاذ مدحة عكاش صاحب الثقافة

٢ ـ اشارة الى الاستاذ سعيد ابو الحسن

٣ ـ اشارة الى الدكتور امين حرب

٤ ـ اشارة الى الاستاذ صلاح مزهر

مقدمات النهج الواقعي في الحركة الأدبية العربية في الثلث الأول من القرن العشرين

الهام طه النجار

تمدنا القراءة التاريخية لمجريات الحركة الفكرية والاجتماعية في البلاد العربية ، خلال الثلاثين سنة الاولى من هذا القرن ، بمشاهدات ثلاثة للمنهج الواقعي في الادب والنقد العربيين ، هي :

١ ـ النظرة الادبية والنقدية للمنورين العرب ، وفكرهم الاجتماعي.

٢ ـ مقولة الحركة الادبية في مصر خلال السنوات التي نؤرخ لها هنا.

٣ ـ دور الاحزاب السياسية الاشتراكية في البلاد العربية.

١ ـ أ ـ أثرة النظرة الادبية والنقدية للمنورين العرب :

نبه استبداد الحكم العثماني وتخلف الشرق الاقطاعي ، في القرن التاسع عشر ، المثقفين من البرجوازية المسيحية في سورية ، والمنورين الاسلاميين في مصر الى ضرورة الاصلاح الاجتماعي والسياسي .

وكان طبيعيا ان تنشأ لديهم نظرة جديدة الى الادب والنقد في اطار دعوتهم الى التحرر والعدالة .

لقد رأى هؤلاء في الادب ظاهرة اجتماعية ، تعبر عن حالة المجتمع ، وأدركوا دوره الشديد التأثير في الوعي الاجتماعي ، فحفزهم ذلك على انشاء ادب يؤدي وظيفة معرفية الى جانب وظيفته التربوية ، وقد جسدت نظراتهم النقدية وعيهم هذا ، اذ كانوا يقومون العمل الادبي بمحتواه الفكري ويقدرون أهمية الوسائل اللغوية والاسلوبية بمدى قدرتها على نقل فكرة الكاتب الى القارئ واقناعه بها ، وقد حملهم هذا الوعي على استقدام أشكال فنية جديدة ، كالادب المسرحي والقصة والاقصوصة والرواية والاجتماعية والفلسفية والتاريخية لصياغة قيم عصرهم المتطورة مع استمرار استخدامهم للاشكال الشعرية القديمة .

ب ـ ارهاصات الفكر الاجتماعي التنويري بالنزعة اليسارية :

أرهص الفكر الاجتماعي التنويري بالنزوع اليساري ، اذ شغلت العدالة الاجتماعية ، هؤلاء المنورين ،فتناولوها بالعرض والتحليل ، فحولها كتب فرنسيس مراش (غابة الحق) ، وفي اطارها قامت دعوة المصلحين الاسلاميين جمال الدين الافغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) ،ومحمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) وكانوا واضحا تأثر هؤلاء جميعا بالفكر الاجتماعي الغربي، لا سيما بالتصورات الانسانية حول الانسان الطبيعي ، وحقوقه الاساسية في الحرية والمساواة ، والكسب المشروع ،وبمبادئ التضامن الاجتماعي ، فمهدت كتاباتهم لفكرة الاشتراكية ، التي سيحمل لواءها في المرحلة التالية الديمقراطي الثوري السوري المتمصر فرح انطون ، فتتعمق في مقالاته ، وقصصه لا سيما مؤلفه (الدين والعلم والمال) ممهدا بذلك لظهور دراسة سلامة موسى الاشتراكية سنة ١٩١٢،وكتاب نقولا حداد "الاشتراكية" سنة ١٩٢٠.

ان القيمة الحقيقية لما جاء به هؤلاء المنورون والديمقراطيون الثوريون تتلخص في امرين تضمنهما بحثهم في مسألة العدالة الاجتماعية وحقوق الانسان

الحر ، والمسألة الاشتراكية :
أولهما : الاهتمام المتزايد بالقوة الشعبية .
وثانيهما : أنهم كانوا الماهدين الحقيقيين لنزوع الفكر الاشتراكي العلمي ، الذي سيظهر في البلاد العربية خارجا من بين عطفي التيار الديمقراطي الثوري ، على الرغم من ان هذا الفكر الاشتراكي العلمي ، لم يكن واضحا لديهم ، ولم يبدوا ميلا او عناية خاصة به ، اذ كانوا يأتون على ذكره خلال حديثهم عن الاشتراكية ، فآراء فرح انطون عن الاشتراكية ، لم تكن تخلو من الفوضى والاضطراب ، كذلك فقد كان واضحا تأثر سلامة موسى بالاشتراكية الفابية ، لذلك فان ما عناه حين تحدث عنها في تلك الاونة لم يكن غير نظام اشتراكي ديمقراطي (برلماني) غربي .

ان ذلك اذ كان يشير الى تطورهام في الفكر الاجتماعي الغربي ، لدى هؤلاء المنورين العرب ، فان هذا الفكر ظل موسوما بالبعد عن الشعب في الواقع الفعلي ، بفعل عوامل اجتماعية وتاريخية لم يستطع المنورون ، العرب ان يتجاوزوها .

٢ ـ النظرة الواقعية في الحركة الادبية في مصر بين اعوام ١٩١٩ ـ ١٩٣٥ :

ومع تصاعد النهوض القومي العربي في نهاية القرن التاسع عشر ، توالت الاحداث السياسية ، وكان ابرزها الصعود الاجتماعي للطبقة البرجوازية وتصديها المباشر للاقطاع المحلي والاحتلال الاجنبي ، وتطلعها الى السيادة الاجتماعية والسياسية ، ففي مصر قامت الفئات المتوسطة والشعبية بثورة عام ١٩١٩ ،ولم يكن الاحباط الذي منيت فيه بنتيجتها ، مانعا لها من تحقيق بعض حقوقها ، وفرض بعض قيمها على الصعيدين الاجتماعي والفكري ، وبفضل هذا التطور منذ سنة ١٩١٩ ،وحتى منتصف الثلاثينات برفد سيرورة النظرة الواقعية في الادب والنقد العربيين الحديثين ، مواصلة ما بدأه الادب في المرحلة التنويرية ، لقد جعلت ثورة عام ١٩١٩ المواطن المصري واقعيا ، يواجه الواقع بايجابية وفاعلية ، فكان لذلك دورا في تعميق دعوة بدأت تزكو في المجتمع ، والادب، للصدور عن الواقع وابراز الطابع المحلي ، والتعبير عن العصر ، والصدق في تصوير الناس بمختلف فائتهم واحوالهم نقرأ لاحمد ضيف في " مقدمة لدراسة بلاغة العرب في عام ١٩٢١: " نريد ان تكون لنا آداب مصرية تمثل حالتنا الاجتماعية وحركاتنا الفكرية ، والعصر الذي نعيش فيه ، تمثل الزراع في حقله ، والتاجر في حانوته ، والامير في قصره ، والعالم بين تلاميذه وكتبه ، والشيخ في اهله ، والعابد في مسجده وصومعته ، والشاب في مجونه وغرامه ، اي نريد ان تكون لنا شخصيه في آدابنا "

وكانت المدرسة التأثرية الذاتية في مصر الثمرة الاولى لثورة ١٩١٩ ، اي تعبيرا عن الاخفاق المؤقت الذ ي منيت به الفئات المتوسطة والشعبية في الثورة ، ولذلك فقد كان هجوم اصحابها ممثلي التيار الجديد عنيفا على أنصار التيار القديم المتحالفين مع الطبقة الثرية ، التي تقاسمت السلطة مع قوى الاحتلال .

ان الامر المهم هنا ، هو دعوة نقاد هذه المدرسة في الديوان ١٩٢١ ، وفي الغربال (١٩٢٣) الى ربط الادب بالحياة ، وجعلهم هذا الرباط شرطا اساسيا في الابداع الفني ، وافرادهم مكانة هامة للادب في حياة الامم ، وغير ذلك ، مما يعد مواصلة او تعميقا للنظرة الواقعية التنويرية ، اتخذ صفة التوجيه للحركة الادبية والنقدية في البلاد العربية ، خلل ثلاثة عقود من السنين ، الى جانب مامثله ظهور هذه المدرسة من دلالة اجتماعية كبيرة .

وتجدر الاشارة هنا الى ان ازدياد قوة البرجوازية الصاعدة ، سياسيا واجتماعيا ، وانتشار ا يديولوجيتها في المجتمع العربي لم يكن يعني انتصارها الكامل في هذه المرحلة ، فما زال الصراع دائرا في انحاء الحياة في المجتمع ، بين القوى التي تمثل الجديد ، والقوى التي تمثل القديم مما نجد تجسيده المعبر في النقد اذ تصارع فيه مذهبان رئيسيان تتداخل الحدود بينهما هما :

١ ـ المذهب السلفي الذي يعني بالنقد اللغوي مترسما طريقة القدماء التي تقوم على العناية بالالفاظ والتراكيب والبلاغة .

٢ ـ المذهب الحديث الذي يهتم بالتجربة الادبية والصياغة الفنية .. وغير ذلك،

أما المدرسة " السورية " في الادب ، فقد تخلفت عن مواكبة "المدرسة المصرية " بعد الحرب العالمية الاولى اذ آتت الحرب والاحتلال الفرنسي على ما تبقى من نشاطها الذي ارهقه الاضطهاد التركي في أواخر القرن الماضي . وساعدت العزلة التي فرضها الاحتلال الفرنسي على سورية في انماء جو ثقافي

في سوريا خاص عملت فيه ثقافتان عربية تقليدية وفرنسية ، لم يلبث ان انبت جيلا جديدا من الادباء ولونا جديدا من الادب ، سيتأخر ظهور تأثيرهما ، الى ما بعد سنة ١٩٣٠ بسبب ضعف قوة ممثليهما ذلك ان البرجوازية المحلية الصاعدة كانت تفتقر الى قاعدة جماهيرية ذات نفوذ ، مما أفردها امام هجوم المحتلين الفرنسيين والاقطاعيين المحليين ، فاضطرها تقوم في (شباط - اذا ر) من هذا العام الحركة الشعبية الجماهيرية المعادية للاستعمار بالضراب الستيني " ، فتحقق انتصار الحركة الوطنية .

٣ - النزوع الاشتراكي العلمي اودور الاحزاب السياسية في نشوء الواقعية :

نشأت الاحزاب الاشتراكية في البلاد العربية في العشرينات من هذا القرن ، في اوج الصراع والكفاح العربي للتحرر الاجتماعي والسياسي ، فوجهت ما وجد من نظرات واقعية في الادب والنقد العربيين وعمقتها فكريا " ايديولوجيا "

قام سلامة موسى في مصر بتأسيس اول حزب اشتراكي في الوطن العربي، ثم تبع ذلك تأسيس الحزب الاشتراكي السوري، اللبناني سنة ١٩٢٢ ، على يد يوسف ابراهيم يزبك ، وفؤاد الشمالي ، وكان التيار الاشتراكي كسلفه ورديفه التيار الوطني الديمقراطي الثوري ، ثمرة البرجوازية المحلية ، اذ لم يكن التيارين ، وأوجد التداخل بينهما في أول نشوء هذا الاخير ، ففي مكونات التيار الديمقراطي الثوري نفسه ، ما يجمعه مع التيار الاشتراكي العلمي ، اذ يضم الاول أمشاجا من الفكر القومي الليبرالي الانساني المتأثر بالصراع الاجتماعي ، وبالفكر الاشتراكي للثورة البرجوازية الفرنسية ، بالاضافة الى مبادىء ثورة أكتوبر الاشتراكية سنة ١٩١٧

لقد نشط عناصر النزوع الاشتراكي العلمي في اول عهده بترجمة المؤلفات التي تفسر الفكر الاشتراكي عن اللغة الفرنسية .

وفي هذه المرحلة ، تبدو الجهود الحثيثة ليوسف ابراهيم يزبك مؤسس الحزب الاشتراكي في لبنان، في نشر الفكر الاشتراكي ، وفي تثقيف العمال بمبادىء الثورة الاشتراكية ، اذ كان هدفه كما حدده هو ان يهيىء ظروف بلاده لاقامة النموذج الاشتراكي الملائم لها مستقبلا ، وكان ينشر مقالاته التبشيرية في جريدة " الصحافي التائه ١٩٢٢ - ١٩٣٠) والمجلة الحزبية " الانسانية ١٩٢٥" .

ولعل البيان الشيوعي الذي كتبه ماركس وانجلز هو العمل الماركسي الاول الذي تم نقله الى اللغة العربية في هذه المرحلة ، اذ قام خالد بكداش بتعريبه ونشره في دمشق سنة ١٩٣٣.

ولا يعثر في العشرينات من هذا القرن على اية اشارة او اهتمام لهذه الاحزاب التي ما لبثت أن انتشرت في مصر وسورية ولبنان والعراق ، بالادب والنقد ولعل كتاب موسى سلامة " في الحياة والادب " ، الذي نشر سنة ١٩٣٠ هو اول مؤلف بحث صلة الادب بالحياة والشعب .

وهكذا فاننا نزعم ان النزعة الواقعية بدأت في العصر التنويري العربي ، وأنها مثلت منذ ذلك الحين نظرة مغايرة ، جديدة وواضحة ، ومطردة في مقابل المذهب السلفي السائد (اللغوي والبلاغي) ، وما نقصده بالنزعة الواقعية هنا ، هو نظرة المنورين العرب الى الادب بوصفه ظاهرة اجتماعية تعبر عن حالة المجتمع ، وتقوم بدور معرفي وتربوي ، وقد كان من الممكن لهذه النزعة الواقعية ان تتطور فتتعمق صلتها بالشعب ، بظهور الفكرة الاشتراكية لدى هؤلاء ، ولولا وجود عاملين: الانتماء البرجوازي للمنورين ، والتخلف والجهل اللذان كانت ترزح تحتهما الطبقات الشعبية العربية في ذلك الحين ، ولايمكن القول ان المرحلة التالية قد حققت ما عجز المنورون عن تحقيقه ، بشكل كامل وصحيح ، على الرغم مما احدثه الصعود الاجتماعي للطبقة المتوسطة العربية في مطلع القرن الشعرين، من تطوير نسبي في تحقيق اجتماعية الادب وشعبيته .

لقد كان ظهور النزعة الاشتراكية العلمية والاحزاب الماركسية ، مواكبا لاشتداد النضال العربي على الصعيدين السياسي والاجتماعي ، ولذلك فقد جرت محاولات هذه الاحزاب لاحتواء القوى التحررية ، وامتلاك زمامها من خلال طرح الايديولوجية الماركسية ، وكانت الحركة الادبية والفكرية في هذه البلاد لعربية للعوامل التي شرحناها مجالا اكثر تقبلا وملاءمة لهذه الايديولوجية الثورية ، لذلك أمكن احتواء النزوع الواقعي الذي انطوت عليه الحركة الادبية - الفكرية ، في المذهب الواقعي الاشتراكي الجديد ، ولعل ذلك يفسر انتشار هذا المذهب وسيادته في الحركة

الادبية ـ الفكرية العربية خلال فتـــــرة وجيزة نسبيا ، ويفسر طابعه المنفصـــل وغير الفاعلي في الواقع الشعبـــي ، ويؤكدهما .

ولقد كان للمجلات العربيـــة ذات الاتجاه التحرري ، اثر كبير في دخـــول هذا المذهب الجديد وانتشاره ، ففـــي مجلة " الطليعة " ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩ ، ثـــم في مجلة الطريق ١٩٤١ ـ ٠٠٠٠) ظهـــرت الواقعية الاشتراكية وبدت تتضح معالمها الرئيسية .

المعيدة : الهام طه نحار
جامعة حلب ـ كلية الاداب

الانتخاب

يسيرُ لا يعبأ ولا يكترثْ
خطواته طريقٌ وفي رأسه شَغَفُ النار
يرى الحسن بن الهيثم هنا
يراه ساحرَ المرايا
يهـــب الضـــوء والماء مملكـــة ويـــراهُ
مدججاً بالبريق زجاجة في يديه لا يعبأ ولا يكترثْ
وريث الطبيعة يشفّ يخدع الافق بالمرايا
ويرسم الماء في الكأس للرأس أن تسكر
أن تكسر الكتابة
والمرايا في دورةٍ في دوار
له الطريق خطيئة الأرض نهرا يراه
يفضّض الجثة كي تُحسن الحلم والماءُ زينة المرايا
يغادر النهر يلجأ في خندق الظلالة والضوء
هو الحسن ابن الهيثم يحرر بالعين كي لا ترى ما يراه .
طريقٌ مكنوزة مثل طيرٍ لا يعبأ ولا يكترث
يرفع الكأس للشمس :
هذه نخبك أيتها الملكة

شعر : قاسم حداد
البحرين

إلى عابثة

حامد حسن

أو تجرأين ـ وأنـــت ماردة ـ على
أن تغـــمـــزي من كبرياء المـــارد ؟

لم يبق من أمس الهـــوى عنـدي سوى
قارورتِيْ عطر ، وبـــضـــع قصـــائـــد

هذي على كبـــدي تنـــام ، وهـــذه
تنـــدسّ كالأحـــلام بين وســـائـــدي

كلماتهـــا وهـــج ، فلو علقـــت بها
يد ناقـــد لحرقـــن كف الـــنـــاقـــد

* * *

لاتُسكـتي اللهف المعـــربـــد في دمي
ونـعـيم نار فمي ،وشهقـــة ساعـــدي

ماغـادر الـشّـفـة الـغميسـة باللظى
إلا ليزرع نهدة في الـنـاهـد

ولـرب سنـبـلة هنـالـك أدركـت
سر الحـياة على ذراع الحـاصـد

وعـبرتِ في جفـنيّ عاجـلة كما
عبر الـيقـين على ضمـير الجـاحـد

كالـنـجـم ماعـلقـتـه مقـلة راصـد
حتى تفّـلت من جفـون الـراصـد

* * *

كرمـي ـ ولـلعَـطِرات يوم قطافـه ـ
فرح ، وتـشـهـق بالـشـهـيّ موائـدي

لاتنكـري ! ! لم تنـطفىء شُعَـل على
غمازتَـيْك ، ولاتـعـذّر شاهـدي

الفكاهة.. فن ومذاهب

محمد غازي التدمري

- ١ -

مهما تكن طبيعة الفن ، فانه ليس من المعقول ، أن تنحصر مهامه في دائرة ضيقة ، لا تتعدى هموم وأشجان صاحبها ، ولا تتخطى اسار النفس المتكورة في محيط الأنا .

والفنان بطبيعة ميوله ، ينزع دائما الى الخير والحب والجمال ، ولا يستطيع أن يعيش في معزل عن الآخرين، او يقف بعيدا عنهم ، لأن كل نتاج فكري خاص ، انما هو في حقيقته جزء من نتاج عام ، وصورة متلاحقة لتجربة عامة يستلهم الفنان موادها من الواقع ، ابتغاء رسم مسار الفكر العام المعبر عن مختلف جوانب الحياة المعاشة .

فالتجربة الذاتية ضمن هذا الاطار ، وان صدرت عن وجدان خاص ، فانها تحمل في الوقت ذاته ، مقومات الموضوعية ، حين يعمل الفنان ذاته أمام فكره ، ليصل الى المفهوم العام ، الذي ترتكز عليه بنية الاحداث ، فتأتي آثاره صورة واضحة المعالم ضمن الاطار الجماعي، وتعبيره في مثل هذه الحالة الشعورية ذاتي في نشأته ، موضوعي في نهاية أمره ومن هنا ، فانني لا أعتقد أن هناك فنانا يملك رهافة الحس ، ورقة الشعور، ودقة الملاحظة ، من الممكن ان يعيش بشكل ما على هامش الاحداث ، أو خارج اطار الجماعة .

وفي انطلاقة الفكر المبدع المعبر عن الجزء من خلال الكل يتحمل الفنان الصادق وهج الاحتراق من أجل أن يمتد بعطائه جسرا تعبر الاحيال عليه .

ولذلك تأتي الواقعية الشخصية تعبيرا عن حدث شخصي بصفته ، ولكنه عام بدلالته فتكون متممة لمسار الادب العام، ورفدا له ، ولونا من ألوانه التي لا يمكن بترها او تجاهل قيمتها ، لأنها جزء تعبيري خاص من كل فني عام .

وعلى دروب المرحلة الصعبة ، تستوقفك محطات متناثرة هنا وهناك ، يتوقف على أرصفتها المدنفون ، يسترجعون ذكريات أيامهم ، وطيوف أحلامهم ، من خلال الطرفة التي تدفع الى الابتسامة أكثر مما تبعث على الضحك والسخرية ، فيأتي الاثر موقفا لنفس تفاعلت مع الحدث وامتزجت به ، من خلال اللحظات المعاشة خارج حدود الكلفة ، فتتشكل دوحة ظليلة في أرض مجدبة ، يتفيؤها المسافر في هجيرة الظهيرة ، فينخلع رداء الرسميات وتختفي المكاتب الانيقة ، وتنزع ربطات العنق الحريرية ، فيتمددوا متساوين فوق بساط الكلمة المدنفة ، والطرفة المترفة ، يطلون من خلالها على الحياة المرهقة ، قناديل ضوء تسطع كلمات خفيفة الروح والظل ، هي وان كانت ضيقة الفسحات فانها تصور جانبا هاما من جوانب حياتهم ، التي لم نقروها في دواوينهم الرسمية ، أو نسمعها في أمسياتهم الشعرية .

- ٢ -

هذا الجنس من الفن، عالم واسع لم تجل منه حتى الآن الا ملامح عامة ، يمتد في جانب آخر حتى يتصل بالهجر والسخرية ، الى عالم المأساة والملهاة ويشتمل فيما بين ذلك على ألوان من الابتسامات ، وضروب من الضحك متفاوتة في درجات الخفة والثقل ، ومقدار الحلاوة والمرارة ، ومراتب الرفق والعنف ، وعناصر الفكر والعاطفة والنشاط واساليب التلميح والتصريح ، ومقولات القريظ والتقريع ، وما الى ذلك من طيوف وأجواء ، وأفانين وطيوب ، مما جعله نوعا من الفن غير العادي ، يمثل طائفة ، ويوائم أذواق طائفة أخرى ، بينما تنفر منه أذواق أخرى ، ولذلك كان لكل شعب نصيب من هذا النوع من الفن ، وحظ من الاستمتاع بما تلذ له القلوب ، وتطرب له الاسماع .

وان كان الفن وليد مزاج الفنان، ونتيجة هواه ، وصنيع شعوره ، فان هذا الضرب من الفن ظل مقتصرا على أربابه الذين تسمح لهم نفوسهم بتناوله .

ولذلك نستطيع أن نحصي مئات الادباء،

الجادين المجدين ، بينما نعجز عن حصر شعراء وأدباء فن الفكاهة البارعين وما ذلك الا لأن هذا الفن بالذات يحتاج الى خفة ظل وبدهية سريعة ، وقدرة نافذة قادرة على التقاط الصور وبلورتها وصياغتها بالشكل المطلوب ، وتحويلها الى مجموعة صور متزامنة متلاحقة ، تختلف كل صورة عما سبقها وعما يليها ، بطبيعة تشكيلها ،واختلاف ألوانها ، وتباين خطوطها ، حتى تتمكن من استقطاب العامة والخاصة ، فتحرك مشاعرهم ، فلا يكون هدفها الضحك لمجرد الاضحاك وانما الضحك للترويح عن النفس المتعبة ، من خلال تصوير لقطة صغيرة ، في كومة كبيرة تحمل البعد والتصوير والنقد والمحاكمة بأسلوب ضاحك ممتع .

والفكاهة كما يقول (ابن عبد ربه): " نزهة النفس وربيع القلب ، ومرتع السمع ، ومجلب الراحة ، ومعدن السرور، كما يرى (فرويد) " ان النكتة ضرب من القصد الشعوري والعملي ، يلجأ الانسان اليه ، ليعفي نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة ، ويتحلل من الحرج الذي يوقعه فيه الجد ولوازم العمل ، وأن النكتة تشبه الحلم في أساليبه ، وهي التورية والتأويل والاختزال والتلفيق ، أي :جمع الصورة الواحدة في صور متجزئة متفرقة لا تجتمع في الواقع " .

وأيا كان الدافع الى الفكاهة ، فان الناس يضحكون لسماعهم ما يحرك شعورهم ، وينتقل من الاعصاب الى العضلات فيخرج من اسار الحياة الجادة المجهدة الى متاع الراحة والهدوء ، فهو انفجار يحدث في انتظار أو من جهد يتحول فجاءة الى لا شيء ، الى فراغ مطلق ، وكأن النتيجة هي التي تدفعنا الى أن نضحك ، ونغرق في الضحك ، بمقدار بعدها عنا ، ومفارقتها للمقدمات التي تسبقها وهذا ما يجعل الفكاهة غذاء روحيا لا تقل ضرورته عن القوت اليومي في الحياة المادية المرهقة بمنغصاتها واحباطاتها واظرافاتها المختلفة .

— ٣ —

ولقد كان العرب يحبون الضحك الضحاكين ، وسموا أولادهم : الضحاك وبسام ، وطلق وطليق ، واذا مدحوا الرجل قالوا : " هو ضحوك السن وبسام الثغر وهش الى الضيف ، قال شاعرهم :

أفد طبعك المكدود بالهم راحة
قليلا وعلله بشيء من المزح
ولكن اذا أعطيته المرّح فليكن
بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

كان النبي (ص) يضحك حتى تبدو نواجذه ، وروي عنه قوله : " روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فان القلوب اذا كلت عميت ."

وبالمقابل نقرأ في أخبر العرب أن منهم من كان يكره المزاح ، حيث قال أحدهم : "لا تمازح صغيرا فيجترىء عليك، ولاكبيرا فيحقد عليك " وقال (عمر بن عبد العزيز " لايكون المزاح الا من سخف او بطر " وبدهي أنهم يقصدون في هذا عدم الافراط في المزاح ، وخلط الهزل بالجد ، وكان النهج السليم في الفكاهة والمزاح ما اورده (سعيد بن العاص) في قوله لابنه : " اقتصد في مزاحك ، فان الافراط فيه يذهب البهاء ، ويجري عليك السفهاء ، وتركه يقبض المؤانسين ويوحش المخالطين " .

— ٤ —

وقد قسم العرب الفكاهة الى أقسام ومذاهب أوردوها في مؤلفاتهم موزعة شتى، يدخل بعضها في باب الغباوة والبلادة ، أو في مجال التكسب أو في مجال التناقض ، والتناظر ، أو اللعب في الالفاظ ، كما يدخل بعضها الاخر في باب التهكم بالعيوب الجدية ، أو التهكم بالنفس أوالمداعبة البريئة .

وفيما يلي بعض هذه الانواع التي أذكرها على سبيل الذكر لا الاستقصاء .

١ — النكتة :

تدور بين اثنين على الاقل ، يستمد صاحب النكتة مواقفه من سرعة البدهية ، وخفة الروح ، فيعمد الى مغالطة صاحبه في ألفاظه ومعانيه .

٢ — السخرية :

أرقى أنواع الفكاهة ، لماتحتاج اليه من ذكاء ، ومكر ، تستخدم بخشونة ، فتكون لدغا خالصا ، كماتستخدم في رقة فتكون تهكما يمس صاحبه مسا رقيقا .

٣ — الدعابة :

وهي فكاهة الوقورين الذين يقولون ما يدعو الى الابتسام الخفيف وليس الى الضحك العالي .

٤ — الغفلة والغباوة والبلادة :

معتمدة على التظاهر بالغفلة ، والبلادة ، أوالغباء ، ومن أجل تحقيق غاية ما ، ويعتبر (جحا) امام هذا النوع من الفكاهة .

٥ ـ التناقض :

ومن ذلك أن جارية أتت الى (أبي ضمضم) فقالت : " ان هذا الفتى قبلني" فقال لها : " قبليه فان الله تعالى، يقول : والجروح قصاص " .

٦ ـ اللعب بالالفاظ :

ومن ذلك أنه اختصم الى (زياد) (بنوراسب) و (بنو الطفاوة) في غلام ادعوه ، وأقاموا جميعا البينة عند (زياد) فأشكل عليه الامر فقال (سعد الرابية) : (أصلح الله الامير ، فقد تبين لي في هذا الغلام القضاء ، ولقد شهدت البينة لبني راسب ولبني الطفاوة ، فولني الحكم بينهما ، فقال زياد : وما عندك في ذلك ؟ فقال : (أن يلقى الغلام في النهر ، فان رسب فهو لبني راسب ، وان طفا فهو لبني الطفاوة ، فأخذ زياد نعليه وقد غلبه الضحك " .

٧ ـ التحكم بالعيوب :

ومن ذلك ماقاله (ابن الرومي) في صلعة (أبي حفص) العراقي :
" ياصلعة " لأبي حفص ممردة
كأن ساحاتها مرآة فولاذ
ترن تحت الاكف الواقعات بها
حتى ترن بها أكناف بغداذ

٨ ـ التهكم بالبخل والجبن والشره :

ومن ذلك قول (أبي نواس) ، في بخل (الفضل) :
رأيت الفضل مكتئبا يناغي الخبز والسمكا
فأسبل دمعة لما رآني قادما وبكى
فلما حلفت له بأني صائم ضحك

٩ ـ الدعابة :

ومن ذلك ما قاله البهاء زهير، في بغلة صديق له :
" لك يا صديقي بغلة ليست تساوي خردلة
مقدار خطوتها الطويلة حين تسرع أفملة
أشبهتها أو أشبهتك كأن بينكما صلة
تحكي صفاتك في الثقافة والمهانة والبله

١٠ ـ الفكاهة للتحبب والاستجمام :

وهي لا ترمي الى اختلاق أو افتراء وانما ترمي الى الاستجمام والارتياح ، ولو للحظة ، من أجل استئناف العمل والقيام بأعبائه أكثر نشاطا وارتياحا،

١١ـ الفكاهة للفكاهة :

ظهر هذا النوع من الفكاهة في العصر الاموي ، بعد أن ارتاح الناس واتجهت أنظارهم الى اللهو والسماع والاستمتاع ، ومن أهم الشخصيات المحببة في ذلك الزمن (أشعب) .

١٢ ـ الفكاهة للتكسب والتعيش :

شاع هذا الجنس من الفكاهة في العصر العباسي ، حيث كثر الترف والغنى وأصبح يعيش في كنف الملوك مغنون ومهرجون ، لا وظيفة لهم غير ادخال السرور والبهجة الى قلوب الخلفاء ، ومن أشهرهم (أبو دلامة) الذي كان شاعرا حاضر النادرة ، كثير الجبن ، وله في ذلك أخبار كثيرة مضحكة .

١٣ ـ التهريج وترف الفكاهة :

كان للعوامل الاقتصادية حوافز قوية فيتوجيه أغراض الفكاهة ، حتى أضحت تهريجا تفتح عن مواهب الشعراء ، ومريدي الخلفاء ، ويروي مؤلف الاغاني ، أن (أبا العبر) كسب بالحمق ، أضعاف ما كسبه شعراء عصره بالجد .

١٤ ـ الفكاهة لدعم الآراء والمذاهب :

غدت الفكاهة والنادرة سلاحا يستعمل في تأييد فكرة ما ودعم مذهب من المذاهب ، ولقد وجدنا في (رسالة الغفران للمعري) سخرية لاذعة بكثير من الاراء والنحل وغمز في طائفة من المفكرين واذا ذكر (المعري) التناسخ روى البيتين التاليين :
" أعجبي أمنا لعرف الليالي
جعلت أختنا سكينة فاره
فارجري هذه السنانير عنها
واتركيها وما تضم الفراره

كما يروي لآخر :

"تبارك الله كاشف المحن
فقد أرانا عجائب الزمن

حمار شيبان شيخ بلدتنا
صير جارنا أبو السكن
بدل من مشيته بحلته
مشيته في الحزام والرسن

على أنه لا بد لنا حين نصل الى هذه المرحلة من البحث في أفانين الضحك ، أن نشيد بمدينة الضحك المستقلة التي شيدها (ابو عثمان بن بحر الجاحظ) وتمكنه من أنواع المعارف المختلفة في عصره ، وقد مزج الفكاهة في كلما كتب ، وحرص على النادرة في جميع مؤلفاته ، ولا يزال جرس ابتسامته العريضة الذكية ، وقهقهة ضحكه يهزجان عبر حقب العصور المتطاولة ، وهو يبرز أهمية الفكاهة واتصال الهزل بالجد في كتبه ، ويكون كتابه (البخلاء) قمة هذا الفن الضاحك ، والجدير في الذكر أن آراء (الجاحظ) في الضحك لا تزال صائبة من الوجهة العلمية ، حتى يومنا هذا .
فالجاحظ يرى ان الاضحاك يتطلب جوا جماعيا فقال : (ولكن ضحك من كان وحده ، لا يكون على شطر مشاركة الاصحاب " ثم جاء (بركسون) فوافق الجاحظ في رأيه وقال : " اننا لا نتذوق المضحك حال شعورنا بالعزلة ، والضحك بحاجة الى صدى " كما اتفقت آراء الجاحظ ، مع آراء العلامة (مكدوجل) من حيث أن الضحك غريزة والى أنه ذو أثر في الجسم والنفس .

١٥ ـ فن الكاريكاتير المضحك :

هو ضرب من الفكاهة لا يعتمد على كلمات ، وانما يعتمد الخطوط والالوان والظلال والضوء ، والتصوير الساخط الى جانب من جوانب الضعف في الانسان فيعمد الى تكبير هذا الجانب وتفخيمه ، فتمسي الصورة مضحكة لما يظهره الفنان من تنام غير موضوعي أو طبيعي في أوضاع الجسد .

١٦ ـ المساجلة والمناظرة :

من أبواب الفكاهة والتندر ، باب المساجلات والمناظرات الشعرية وهو فن قائم على علاقة الفرد بالفرد ، حيث تدور المساجلة ـ في العادة ـ حول حادثة تقع لشاعر ما ، فتنتقل من شاعر الى آخر ، وخلال هذا الانتقال تتطور الحادثة ، وتنتقل من الحيز الجاد الى مساحات دائرية فكهة ، من خلال المداعبة واقامة علاقات جديدة بين اللغة والصور المتحركة ، القادرة على اصطياد الكلمة الساحرة ، ذات الأبعاد العميقة والمنسجمة مع وقائع الحدث وتناميه التزاجيدية ، أو الكوميدية ، ولهذه المجالس نكهة خاصة ، حيث يلتقي المدنفون في رحابها والنفوس هائمة برقاب الابداع ، والروح آمنة مستقرة ، والخيال مجنح محمول على أفياء الكلمة الساحرة المنداة بالعطر، على بساط العبقرية المسافر في رحلة الحرف المترف ، فلا شيء يستحوذ على البابهم ويشدهم من مناهج دراستهم ومداركهم ، لذلك الكائن الجميل ، الذي أطلق عليه اسم (الفن) ، ليحوي النفس المتعبة ، ويحلق بها في ملكوت الشعر ، تضجع الساعات فيها على كف الزمن متجمدة أمام بسمة شاعر مرهف ، أو مداعبة أديب ذواقة ، فالجمال واللطف والمداعبة المؤدبة ، رائد أخلاقي لكل ما يدور بينهم في مجالسهم الخاصة ، خارج عياداتهم أو مكاتبهم ، وبعيدا عن الامسيات الرسمية ، والمنابر الخطابية .
وتنقسم هذه المجالس الى نوعين متضاربين نوع يتسم بالجد والوقار : هو من صنف الاخوانيات المتبادلة بين الاصدقاء ونوع آخر يتسم بالفكاهة والمداعبة والنكتة السريعة ، يدور معظمها حول حادثة ما ، قد تكون صغيرة ، أو قليلة الشأن ، ويتداولها تتسع دوائرها ، لتصبح قضية عامة ، معتمدة على الطرفة المستندة على لغة سهلة ، مطعمة ، بالعامية أحيانا ، وكل بمنأى عن الهموم والمتاعب اليومية يحدها طابع أخلاقي عام ، ويسيجها الذوق والاحترام المتبادل بين الشعراء أنفسهم

ـ ٥ ـ

هذا النوع من الفن الفكه ، يرى فيه بعضهم مضيعة للوقت ، وملهاة تبعدهم عن المعاناة الجماعية ، وتحصرهم على موائد الترف المتخمة بالموضوعات الصغيرة ، وقد فاتهم أنها جزء لا يتجزأ من الفن ، كما لا يمكن اسقاطها من وحدة الاساليب التعبيرية ، فهي تشكل لونا فنيا متميزا ، له جذوره العريقة الممتدة في عروق التراث العربي الاصيل، كما أننا في أمس الحاجة اليه خلال متاعب الحياة اليومية ، باحباطاتها المتكررة ، فهي محطات استراحة تقدم فاكهة نادرة ذات نهكة خاصة ، تميل نفوسنا اليها ، وتستطيب أذواقنا مذاقها يقدمها ادباء وشعراء وفنانون على طبق الطرفة الممتعة القادرة على أن تنسينا همومنا اليومية ، وتبعد جفاف الفن الجاد المتزمت والمنحرف

تجاه السريالية والرمزية والابهام .
ومن هنا فاننا لا نجد في هذا النوع من الفن علىما يحمله من خصوصيات غضاضة في قبوله و الاعتراف به ، كنوع من الواقعية الشخصية التي ترفد الادب والفن الجاد بنسغ الحركة والمرونة .
(فابن الرومي) مثلا استطاع ان يتفوق بشعره الساخر ويحقق لنفسه مدرسة أولى في فن الهجاء ، ومعظم النقاد قديما وحديثا ، لم يطردوا الشعر الساخر من رحمتهم ، بل وجدوا فيه ثورة على العيوب والتخلف وتصويرا صادقا لمختلف الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، بلغ من التأثير في الناس مالم يبلغه الفن الجاد نفسه ، وذلك لقربه من نفوس العامة ، ولخفة دمه ، وتمازج صوره وأبعاد سخريته ، ولو قدر لهذا الفن الساخر من يجمعه ويصنفه لكان تراثا فنيا يحمل في مضامينه قيما فنية خاصة ، تضفي على الفن الجاد ظلالا خفيفة تلطف من جفاف بعض آثاره ، ويكون وسيلة ترفيه لا بد منها في مسيرة الفن عموما .

وهذا ما يصل بنا الى أن هذا اللون من الفن : ريحانة النفوس ،ومتعة الخواطر ، وسلوى القلوب ، وهو من خصائص الانسان ولوازمه ، يجري مع الفكر الحر ، وينشط مع الطبع الرشيق ، وهو ذو ألوان متعددة منها الزاهي والصارخ والناصع والقاتم والواضح والبهيج والحزين ، فيه المز والحلو والمر ، ومنه الساخن والبارد .
وهو على أنواعه المتعددة وطعومه المختلفة لا يكاد يخلو منه عصر من العصور ، ولا أدب من الآداب ، انه ترب الحياة ، ولدة الفكر ، وصنو العلاقات ، الانسانية ، والسمة الدالة على طبيعتها وشكلها ، هو للجذلان توكيد لجذله ، وللمحزون تنفيس عن حزنه وتسلية عن كربه ،تبرق له العينان وتنفرج الشفتان، ويرن الصوت ، وتتألق النفس ويعلو لي الفكر ، وتتمايز الشمائل ، فاذا الدنيا فجر ضياء ،وجمال أبدي الاندفاق .

محمد غازي التدمري ـ حمص /

في آخر هذا الوقت

شعر : صالح هواري

مَنْ منكم يملكُ قطرةَ حزنٍ
لم يثقبْها رمحُ الماءْ !!
اكتُبها مرثيَّهْ
للأمواتِ . . . وللأحياء
أُقْسِمُ : هذا الحزنُ الساكنُ فيكم
طاحونةُ رملٍ . . . وحصانُ هواءْ
آهٍ كم أهوى تحليقَكَ يا طيرَ البريَّه
وأحبُّ عيونَكَ يا خبزَ القريهْ
صافية كعيونٍ بدويَّه
حَنَّتها أشواقٌ صوفيَّهْ
لو أملكُ أنْ أفعلَ ما أهوى
لملأتُ الدنيا شدْواً نبويَّاً
فرحاً قرويَّاً لا يغضَبْ
أصرُخُ . . . يتكسَّرُ صوتي في صوتي

أتنشَّقُ عطراً مرَّاً
وهواءً أفيونيَّ السحرِ مهرَّبْ
أتوقَّفُ في معجمِ تكوينِكَ يا عمري
ينهمرُ الوقتُ مرايا عاقرةً
ومدائنَ هشَّهْ

أرثي وجهَكَ يا وجهي
أرثي قاموسَ الفوضى المزدوجَهْ
أرثي قمري معصوبَ العينَينِ
يمدُّ يديْهِ الى الموجَهْ
أَرغبُ . . . أولا أرغَبْ
في آخرِ هذا الوقتِ
أغصانُ حقيقتِنا صارتْ
سمكاً يقفزُ وإوزَّاً يلعبْ
كلُّ الأشياءِ معلَّبةٌ
من أولِ قطرةِ حبٍّ
حتى آخرِ خصلةِ شوقٍ فينا
فمتى يا وجهَ الشمسِ يجيءُ زمانٌ
ننهضُ فيه
منْ شرنقةِ الأحلامِ
نُعَشِّبُ وجهَ الأيامِ
من الفرحِ الخُلَّبْ ؟!!

١٩٧٩

عيسى الناعوري ... حياته وأعماله

بقلم: عيسى فتوح

يوم الجمعة في ١٩٨٥/١٠/٤ غيب الموت الاديب الدكتور عيسى الناعوري ، أمين عام مجمع اللغة العربية الاردني ، اثر نوبة قلبية وهو في تونس التي كان يزورها بدعوة من مجلة الفكر بمناسبة الاحتفال بالذكرى الثلاثين لصدورها ، ويوم الثلاثاء في ١٩٨٥/١٠/٨ نقل جثمانه الى عمان ، حيث دفن في احتفال كبير .

ولد الدكتور عيسى الناعوري في قرية " ناعور " قرب عمان عام ١٩١٨ ، وتلقى تعليمه الابتدائي في القرية والثانوي في المدرسة الاكليريكية بالقدس وعمل في تدريس اللغة العربية وآدابها خمس عشرة سنة في مدارس اهلية في فلسطين والاردن ، كما عمل سكرتيرا ومفتشا لادارة مدارس الاتحاد الكاثوليكي في الاردن ثلاث سنوات ١٩٤٩- ١٩٥٢ وموظفا في وزارة التربية والتعليم عشرين عاما ١٩٥٤- ١٩٧٥ ولما اسس مجمع اللغة العربية الاردني في ١٩٧٦/١٠/١عمل امينا عاما له حتى وفاته .

حاز على الدكتوراه الفخرية من الاداب من جامعة باليرمو في ايطاليا ١٩٧٦ ومن الاكاديمية العالمية للفنون والثقافة في تايبي - الصين الوطنية ١٩٨٢، كما حاز على بعض الاوسمة والجوائز التقديرية من ايطاليا وتونس والاردن ، وشارك في عدد من المؤتمرات والندوات والمهرجانات العربية والدولية والاشتراكية .

كتب مئات الاحاديث والبرامج الادبية لاذاعات عربية وأجنبية متعددة ، وشارك في العديد من الندوات الإذاعية والتلفزيونية في الاردن وخارجه ونشرت اعماله الادبية فيكل من الاردن ومصر ، وسوريا ولبنان ومالطة وتونس وليبيا ، وايطاليا ، وكان يجيد الايطالية ، والانكليزية ويترجم عن الاسبانية والفرنسية

أصدر مجلة " القلم الجديد " ، الادبية الشهرية في عمان ١٩٥٢و لكنها لم تعش الا عاما واحدا وصدر منها اثنا عشر عددا ، منها ثلاثة اعداد خاصة عن الاردن، وليبيا والمهجر ..

أصدر سبعة وخمسين كتابا في القصة القصيرة والرواية والشعر والنقد الادبي والبحث والدراسة والسير والتراجم، والرسائل والادب المقارن وادب الاطفال والاحداث ، والترجمة من اللغات الاجنبية ، واليها ، والكتب المدرسية ، وله ثلاثة كتب بالايطالية ، وبحوث عديدة منشورة ، فيها وكتابان باللغة الانكليزية ومجموعة شعرية غير مطبوعة باللغة الايطالية .

زار القسم الاكبر من البلدان، العربية وكثيرا من البلدان الاوربية ،

الغربية والشرقية ـ والولايات المتحدة الاميركية وتايوان وبانكوك ، وكانت له صلة وثيقة بالعديد من اعلام الادب العربي في مختلف اقطار واعلام الادب الايطالي والمستشرقين في كثير من البلدان الغربية اعماله المترجمة الى العربية :

---

١ ـ اطفال وعجائز (اقاصيص ايطالية مترجمة) دار المعارف ـ بيروت ١٩٦١

٢ ـ فونتمارا (رواية ايطالية مترجمة) لانياتسو ـ سيلونه ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٣

٣ ـ من القصص العالمي (اقاصيص غربية مترجمة) لجنة التعريب الاردنية ـ عمان ١٩٦٩

٤ ـ مأساة الانسان (مأساة شعرية) مترجمة عن الادب المجري ـ منشورات عويدات بيروت ١٩٦٩ ٠

٥ ـ الفهد (رواية ايطالية مترجمة لتومازي دي لامبيدوزا) منشورات عويدات بيروت ١٩٧٣

٦ ـ الشاعر الايطالي مونتالي (دراسة وترجمات من شعره) مجلة الاداب الاجنبية ـ دمشق ١٩٧٦

٧ ـ مختارات من الشعر الايطالي المعاصر ـ بالعربية والايطالية ـ مطبعة الف باء الاديب ـ دمشق ١٩٧٨

٨ ـ الشاعر الايطالي ليوناردو سنيسغالي مجلة الاداب الاجنبية ـ دمشق ١٩٧٩

٩ ـ الباحثون الايطاليون وكتابة التاريخ العربي ـ مترجم عن الايطالية للمستعرب الايطالي اومبرتو ريتستانو ٠

١٠ ـ الشاعران كوازيمودو ومونتالي ـ صديقان فازا بجائزة نوبل للاداب دراسة مستلة من مجلة الشرق روما ١٩٧٦

١١ ـ حقيقة افران الغاز النازية ـ روبير فوريسون (مترجم عن الايطالية) دار الكرمل ـ عمان ١٩٨٣

١٢ ـ الرجال والرفض (رواية ايطالية مترجمة لايليو فيتوريني) دار ابن رشد عمان ١٩٨٤

١٣ ـ روما (مترجم عن الانكليزية في سلسلة ليدي بيرد) مكتبة لبنان ـ بيروت ١٩٧٨

١٤ ـ من القصص العالمي (مترجم عن الانكليزية لاندرسن) دائرة الثقافة والفنون عمان ١٩٨١

ومن كتبه التي تتعلق بالاداب الاجنبية :

١ ـ دراسات في الاداب الاجنبية ـ سلسلة اقرأ ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٧

٢ ـ دراسات في الادب الايطالي ـ سلسلة اقرأ ـ دار المعارف بمصر ١٩٨١

كما ترجم لعدد كبير من الشعراء والكتاب الايطاليين المعاصرين منهم حوزيبي اونغاريتي ، واوجينو مونتالي ، وديفغو فاليري ، واومبرتو سابا ، وايلزا مورانته ، وسيرجيو سولمي ، و فيتوريو سيريني ، ونينو موتشيولي ، وايرالدو ميشيا ، ولينا انجوليتي ، وجوزيف فانشولي ، وجبرييلي، وجبرييلي دانونتزيو ، وميللي داندولو، وجوزيف سيزار ابا ، وجوفاني موسكا ، والفريدو بانتزيني ، وغراتسيا ديليدا وفيتوريو روسي ، ونيللو سايتو ، والبرتو مورافيا ولويجي بيراندياللو ٠٠

كما كتب عن كل من : اليوت ، واوسكار وايلد ، وسمرست‌وم واندريه جيد ، وبودلير ، وديستويفسكي ونيرودا ، وجول رومان ،وشاندور بيتوفي ، وفاراي غايور ، وميكلوش رادنوتي ، وخريستو

بدأت الدورة وبذل المعلم مجهودا كبيرا من أجل افادة تلاميذه ، كان عددهم لا بأس به ، ولكنهم كانوا في نهاية كل شهر يماطلونه في تأدية ما عليهم من الاقساط ، ومع ذلك فقد استمرت الدورة وحصل المنتسبون اليها على الدرجات الجيدة في الامتحان ، شكر اولياء الامور المعلم على جهوده ووعدوه بتأدية ما ترتب عليهم من الاقساط في اقرب وقت .

وسائل اللهو والتسلية الحديثة المتمثلة بالرائي وأشرطة التسجيل المرئية عملت على تدني نسب النجاح في المدرسة ، عقد المعلمون والمعلمات اجتماعا طارئا فيما بينهم يتدارسون الامر على كافة وجوهه التربوية والمعيشية قرروا بعد ذلك رفع بعض الدرجات المتدنية للتلاميذ المقصرين لتدارك السوية المنخفضة في نسبة النجاح هذا العام ، وبذلك يدخلون المسرة الى قلوب المدير والموجه التربوي للمنطقة واولياء امور التلاميذ .

«راقت له الفكرة، وارتسم
على شفتيه طيف ابتسامة ظافرة
وتدفقت دماء النشوة الساخنة
إلى وجنتيه، وتألقت في
عينيه وميض الإنتصار، مطّ
شفتيه استحساناً وهزّ رأسه هزّاتٍ
خفيفة».

الامر الوحيد الذي أغاظ المعلم خالد شاكر هو اضطراره لانجاح التلاميذ الثلاثة المقصرين في صفه ، بعد ان استنفذوا فرص الرسوب في المرحلة الابتدائية ، ورغم انهم لا يجيدون قراءة سطر واحد من دروس القراءة دون اخطاء نحوية او لغوية، ويعجزون عن كتابة أسمائهم بصورة سليمة على اوراق الامتحانات الشهرية ، وكان نجاحهم عملا بالمادة الحادية والعشرين من نظام الامتحانات العام .

في صباح احد الايام في بداية شهور الصيف ، انهمك المعلمون والمعلمات في توزيع سجلات العلامات على تلاميذ المدرسة ، وتتابعت فوق وجوه التلاميذ فرحة النجاح ودمعة الاخفاق .

فرغ المعلم خالد شاكر من توزيع السجلات على تلاميذه وبدأ باجتياز باحة المدرسة في طريقه الى غرفة الادارة .

شاهد بعض تلاميذ دورته مجتمعين تحت ظل شجرة الليمون قرب نافذة غرفة الادارة المطلة على الباحة ، يتناقشون في علاماتهم التي حصلوا عليها في نهاية العام الدراسي .

دفع الباب وجلس على أقرب كرسي قرب النافذة ، محني الظهر ويداه متدليتان في حجره ، حك ذقنه مفكرا في السنوات الماضية التي امضاها معلما في هذه المدرسة في الحي الشعبي الفقير على سفح جبل قاسيون ، وتنهد محدثا نفسه : " ياه .. كم تمر الايام سريعة بنا ونحن عنها لاهون في معيشتنا .. ياله من عمر طويل قضيته في هذه المهنة ، خمسة وثلاثون عاما وأنا امارس مهنة التعليم ؟ .. صحيح أنني خرجت أجيالا متعاقبة تشعبت خلال الخلايا الاجتماعية بين مهندس وطبيب ومحام وضابط ورجل أعمال .. وأين مني أنا من هذه الفئات من المردود المادي خلال ممارستي هذه المهنة ؟ .. " وضحك.. ضحك في سره طويلا .. وليس يدري ان كانت تلك الضحكة هي قصيدة رثاء ينعي فيها عمره الضائع هباء .. ام ضحكة اعتزاز لصموده في هذه المهنة وهو لا يزال محافظا على قواه العقلية سليمة ؟ ..

وصل الى سمعه شيء من أطراف الحوار الذي كان يتجاذبه تلاميذ دورته تحت النافذة ، أرهف سمعه عندما وجد ان الحوار كان يدور حول دورته وكيفية قضاء عطلة الصيف ، سأل أحدهم : أين ستقضون ايام العطلة الصيفية ؟ أجاب التلميذ صاحب الصوت الرفيع : العطلة للراحة بعد الدراسة .. وهي من حقنا ، وقال التلميذ السمين ذو الوجه المستدير ويجب ان نستمتع بها . قال صاحب الوجه المليء بالنمش : بصراحة .. لقد مللنا من الدراسة .. وعلق التلميذ صاحب الوجه النحيل : أنا أكره مادة الرياضيات ، لست أدري لماذا أحدها صعبة جدا ، ولا أستطيع الانسجام معها ؟ قال التلميذ القصير القامة : أنا أحب قراءة قصص التاريخ فهي مفيدة ومسلية ، سأل التلميذ السمين : متى سيسدد والدك بقية الاقساط للمعلم ؟ أجابه التلميذ صاحب الوجه المليء بالنمش : عندما يتوفر لديه الفائض من النقود ، عاد

صديقه يسأله : وماذا يعمل والدك ؟ أجابه : موظفا ، فرد عليه ساخرا ؛ التسديد سيكون بعد زمن طويل ، أكثر الموظلين يستدينون في الايام الاولى من الشهر ، قال التلميذ المورد الوجنات مفاخرا : استأجر لنا والدي شقة سكنية مفروشة في مصيف رأس البسيط وسنمضي هناك شهرا كاملا ، أطلق الجميع صفيرا متواصلا من أفواههم ثم صرخوا مبهوتين ؛ ياه .. شهرا كاملا على شاطئ البحر ؟، سأله احدهم : ماذا يعمل والدك ؟ أجابه متباهيا : تاجر بناء .. ومهن أخرى حرة ، قال التلميذ الطويل القامة ؛ أنا وأخي سنمارس لعبة كرة القدم والسباحة في نوادي الشبيبة الصيفية .

غابت أصواتهم عن المعلم وهم يودعون بعضهم ليلتقوا من جديد في بداية العام الدراسي القادم .

ضحك المعلم بينه وبين نفسه ضحكة صغيرة باهتة ، ساخرا من الوهم ، الجميل ، الذي عاش لحظاته المضيئة في الايام السابقة ، بلع ريقه ليرطب حلقه الجاف ، ولعق شفتيه بلسانه رافعا حاجبيه في تساؤل مبهم : " ايه .. يازوجتي العزيزة المسكينة ، بقية الاقساط الشهرية التي عقدنا عليها الامال الكبار ستدفع لنا عندما يتوفر الفائض من المال في جيوب الموظفين ، وقد يمتد اجل الدفع طويلا ، ومعنى ذلك يجب ان تقري بالواقع الرمادي مثلي ، ولكني أشك في أنك ستملكين الشجاعة الادبية التي تؤهلك لأن تقبلي مثلي فكرة قضاء الايام الموعودة في مصيف الاحلام ، على انها كانت مجرد توارد خواطر وأمنيات هزيلة على مخيلات مهيضات الجناح في ليالي الفرح المعتم ؟ ..

أم أنك ستشتاطين غيظا وغضبا وتنهالين بالسباب والشتائم على رؤوس التلاميذ وأوليائهم الذين مكروا بوهمك الجميل ساخرين ؟ ..

لا شك انك ستندبين حظك التعيس الذي ربط حياتك بحياة موظف بسيط ، أمضى خمسة وثلاثين عاما من عمره ، يقدم فيها ذوب روحه ، ووقدة عمره وخلاصة أحلامه قربانا على شرف المهنة ، دون أن يكافأ بتحقيق حلم العمر لزوجته وأولاده بقضاء عدة ايام من الصيف في أحد مصايف الوطن التي طالما حدث تلاميذه وعائلته عنها وهو يتلمسها بيديه على الخارطة الكبيرة وفوق صفحات كتب الجغرافيا .

نبهه من شروده صوت المدير المشروخ متوجها الى المعلمين والمعلمات في غرفة الادارة ؛ الله يعطيكم الصحة ، لقد تعبتم هذا العام ايضا وأديتم الواجب باخلاص ، نحن الجنود المجهولون لا ننتظر المثوبة الا من الله ومن راحة ضمائرنا ، يشهد الله ان مهنتنا مضنية وشاقة وتستحق الاجازة الطويلة في أشهر الصيف ، أمدكم الله بالقوة لنتابع معا المسيرة الطويلة ، والى اللقاء في العام الدراسي المقبل وكل عام وأنتم بخير ، همست الانسة فيحاء لزميلتها في أذنها : مديرنا لا ينسى في نهاية كل عام دراسي ان يتحفنا بموعظته العصماء التي حفظناها عن ظهر قلب .. ردت عليها زميلتها هامسة : انه هو هكذا دائما ، يحب المجاملات في كافة المناسبات ، عادت الانسة فيحاء تهمس لها : متى نتخلى عن هذه المجاملات ونضع الاصابع على الجرح الذي نعاني جميعنا منه ؟ همست لها زميلتها : تقصدين اوضاعنا الاقتصادية المتدنية ؟ همست الانسة فيحاء معظم العاملين في مهنة التعليم اتجهوا الى العمل الاضافي حرصا منهم على نقاء سمعتهم المهنية بين الناس ، تنهدت زميلتها : ايه ..

نهض المعلم خالد شاكر بدوره وصافح المدير وزملاءه وزميلاته ، وتبادل مع الجميع عبارات المجاملة التقليدية ،

غادر الجميع المدرسة وتولى المستخدم الكهل اغلاق باب المدرسة الكبير وراءهم متمنيا لهم اجازة طيبة .

سار خالد شاكر في الطريق بخطوات متباطئة كمن يمشي خلف نعش آماله ، جارا قدميه ، وبقايا ابتسامة شاحبة متناثرة فوق شفتيه ..

اتجهت قدماه نحو البيت ، حسب في ذهنه حصيلة دورته للمرة العاشرة ، فوجد ان المبلغ المتوفر لديه لايتجاوز المئتي ليرة سورية ، والباقي أضحى دينا بعيدا تسديده في ذمة الزمن ، وعندما سأل محاسب دائرة الامتحانات في الجامعة عن موعد دفع تعويضات المراقبة هذا العام ، اجابه ان التعويضات ستدفع في بداية العام الدراسي القادم بعد ان يتسنى له تنظيم الكشوف بأسماء المراقبين .

اي أن ما لديه لا يكاد يكفي لقضاء يوم واحد مع عائلته في احد مصايف الاحلام .

توقف قليلا ، وفكر ، أشعل لفافة تبغ ، نفث دخانها متفايقا في الهواء ، فجأة حول وجهة سيره الى طريق فرعي يفضي به الى مقهاه المفضل .

جلس خلف الطاولة الصغيرة المتسخة وطلب كوبا من الشاي الساخن ، اتكأ بمرفقيه على الطاولة وراح يراقب بعينين ساهمتين حركة الحياة والناس في الحي .

خطرت له فكرة فعزم على تنفيذها لعله يجد في ذلك الراحة لافكاره القلقة واعصابه المتوترة .

نادى عامل المقهى وطلب منه ورقة صغيرة بيضاء ، وأخرج قلمه من جيبه الداخلي وبدأ يسطر لزوجته واولاده بطاقة اعتذار صغيرة يعتذر فيها عن عدم تمكنه هذا العام ايضا من انجاز وعده بقضاء عدة ايام في احد مصايف البلاد الجميلة ، مقسما لهم انه لا يد له في اجهاض تطلعاتهم النبيلة ، والمشروعة ، وقد بذل جهده في السير في كافة السبل التي تعمل على تحقيق تلك الاحلام ، ولكن سوء الطالع الذي لازمه في محاولاته كان يخيب له ظنه .

وختم بطاقة الاعتذار بقوله : " آمل .. وكلي ثقة بالمستقبل ، ... ان أستطيع تحقيق حلم العمر في صيف قادم ، أرجو تعاونكم معي بالصبر وعدم فقدان الامل بالمستقبل ولكم مني كل المحبة والاعتذار ". ..

طوى الرسالة بيد باردة واصابع مرتعشة ودسها في جيبه بعد ان قرر ان يضعها على المنضدة الصغيرة في صباح اليوم التالي لتقرأها العائلة بعد مغادرته البيت الى المقهى .

أرخى ساعديه على الطاولة ، ومال بجسمه الى الامام ، وبدت له وجوه الناس امامه وكأنها تترى بلا معالم وزحام السيارات و الحيوانات وكأنها تأتيه من عالم آخر ..

أحس فيما يشبه الحلم ان دمعة قهر حزينة ساخنة تسربت بصمت تحت أهدابه ، منسابة ببطء فوق وجنته لتستقر على ظهر يده ..

انتفض ملتفتا حوله كالمذعور خشية ان يرى دمعته احد من رواد المقهى سارع يجفف عينيه ، بمنديل ورقي وتنهد متحسرا وهو يهز رأسه ، بينما أخذت أصابعه المضطربة تنقر على الطاولة بعصبية ..

محمد علي برازي
دمشق

فالحب يبني

بشّتْ لك الدنيا فهل تتجهّمُ ... وتضاحكتْ - فاضحكْ لهنّ - الانجمُ
عجباً أمحرومٌ يسبّح ربه ... حمداً ، ويجحده غنيٌّ ، ينعمُ ؟
تحلو الحياة لمن يراها حلوة ... ولمن يراها مرة تتعلقم
فانظر الى دنياك نظرة شاكر ... تصبح نعيما - أوأحب - جهنم
ان البشاشة والمحبة توأم ... فليسبقن خطاك هذا التوأم
بالحب قد تصل الثريا بالثرى ... فالحب يبني والضغينة تهدم

زكي قنصل

نيران على القمم
سيرة ذاتية
وأزلنا التخوم

٢٨

سعيد ابو الحسن

كان لاحداث ١٩٤٣ هذه اثرها الكبير في تسارع الاحداث . فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك ، ان الاستقلال الاداري والمالي سيظل الذريعة الجاهزة للمنتفعين بالتجزئة ليثيروا الشغب ضد الحكم المركزي وليحولوا دون اية خطوة وحدوية حقيقية سيكون من شأنها انهاء عهدهم ، وبقدر ما كنا نتحرك لانهاء الوضع ، كان خصومنا يتحركون للابقاء عليه .

أواخر ١٩٤٣ اقام احد الشبان من آل الاطرش مأدبة غداء ـ عشاء ـ موعدها حوالي غروب الشمس ـ وكان يتخذ نهجا وسطا فدعا الى المأدبة اشخاصا ينتمون الى لفئات المختلفة ـ وكان افراد شباب العروبة من المدعوين ، ولعلهم قصدوا بالدعوة اكثر من سواهم .. وحين اكتمل عدد المدعوين واقترب موعد تناول الطعام وقف قائد الدرك ، بطل الردة التشرينية ، وقال ما معناه : اننا نسمع ـ نغمة جديدة في بلدنا ـ نسمع اسم " شباب " وغير ذلك ـ اننا لا نقبل بأن يرتفع اسم " شباب " ابدا في هذا البلد ـ اننا الخ .. لم يكن من الممكن السكوت على هذا الهجوم المفاجئ واستغلال الدعوة لهذه المآرب الدنيئة . ولذلك رددنا على الهجوم في منتهى العنف وقلنا : اذا كنتم قد اقمتم مأدبة ودعوتم الناس لتتحدوهم وتحاولوا المس بكرامتهم ، فأنتم مخطئون ، ان الشباب حين يثبت وجوده في قضايا وطنه لايحتاج الى اذن من احد ولا يقبل وصاية احد ولا يسمح لأحد بأن يوجه اليه أي تهديد صريح او مبطن ـ والاصبع التي تمتد الى الشباب باتهام ما احرى بها ان ترتد الى رأس صاحبها وصدره ، اما الشباب ففوق متناول المغرضين وتطاول المتطاولين

واذا كنتم لا ترجعون عن غييكم فسننسحب من مأدبتكم وسنلتقي في مجالات اخرى .
وكما هي العادة قام بعض افراد العائلة ومنهم صاحب الدعوة ، فاحتجوا على قائد الدرك واظهروا انهم لا يقبلون بأن تستغل مأدبتهم لأي غرض سيء ، ووجهوا الى الشباب اعتذارا لبقا .

بالنسبة الي ، كانت جماعة شباب العروبة التي تكونت في قلب المعركة آخر مظهر مموه تمر به حركتي القومية العربية التي كنت انوي اعلانها صريحة واضحة " حركة عصبة العمل القومي " لقد اشرت الى بعض المظاهر الممموهة الاخرى السابقة (جمعية العمل : العصبة المتمردة ، رابطة الجبل الادبية). اما شباب العروبة فكانت مقدمة للحركة الشعبية العامة التي ستتولاها هيئة الشعب الوطنية من اجل تنفيذ برنامجها الموضوع عام ١٩٤٣ ، والتركيز على البند الاول من هذا البرنامج وهو الغاء الاستقلال الاداري المالي . الذي دلت كل التجارب على انه سبب كل علة ونقطة الضعف في كل حركة . وكانت نقطة البداية ـ الشرارة ـ في مرحلة العمل الجديدة بيان وجهناه " الى الشعب الجبلي الكريم ـ من، " جماعة العروبة " ، واورد هنا بعض الفقرات من هذا البيان الذي يعتبر بمثابة خطة عمل : .. " لذلك اصبح من واجب جميع المشتغلين بالقضية الوطنية ان يتنادوا وينظموا صفوفهم ليتمكنوا من خدمة وطنهم باكثر ما يكون من القوة والنظام والاستمرار ـ وهذه " جماعة العروبة " تفتح باب التنظيم على مصراعيه وترحب بكل مخلص يغار على المصلحة العامة ويتفانى في سبيلها ، وميدان العمل الوطني واسع يقتضي تعاون الجميع وتساندهم . واول مايجب ان نعمل له في السياسة الوطنية في الجبل هو الغاء الاستقلال الاداري المالي الذي يقف حائلا بيننا وبين كل اصلاح وتقدم ، حتى صارت جميع المحافظات السورية ، بفضل الوحدة المركزية ، في حال احسن من حالنا رقيا وثروة وعمرانا فيجب ان نعمل لتحسين حالة الجبل الثقافية والزراعية والصناعية وللمحافظة على حقوق الفلاح وتقدمه .

" اما في السياسة الوطنية السورية القومية العربية العامة فسنساهم مساهمة فعالة في خدمة القضية العربية التي يجب ان تستقر في نفوسنا وأفهامنا كقضية قومية رئيسية علينا ان نغذيها بالافكار والاعمال والاموال والنفوس .. وهذا يقتضي مكافحتنا لكل حزبية ضيقة تخالف المصلحة العامة ولكل نزعة انفصالية ولكل استثمار او استغلال او استبداد او استئثار او نفعية او انتهازية او تواطؤ مع الاجنبي ضد مصلحة البلاد . ولتكن امنيتنا جميعا ان تتسلم حكومتنا الجيش وتنظمه وتقويه بقيادة رئيس جمهوريتنا المحبوب بحيث يصبح موضع فخرنا وحامي استقلالنا وامجادنا ، وبحيث تصبح لنا كلمة فعالة نقولها مع البلاد العربية المتضامنة في كل قضية ، تهم هذه البلاد اجمالا وتفصيلا ..وينتهي البيان بكلمة " تحيى العروبة " وهي تحية العصبة .

والبيان مؤرخ في ٢١ ربيع الاول ـ ١٣٦٣ـ و ١٩٤٤/٣/١٥م معركة عام ١٩٤٤كانت بحق معركة الغاء الاستقلال الاداري المالي بالجهود المبذولة ليل نهار منذ تكوين هيئة الشعب الوطنية على اساس مبادىء واضحة عام ١٩٤٣،واكتساب هذه الهيئة

الصلابة اللازمة خلال معركة الانتخابات ثم خلال الردة الانفصالية التي وصفتها سابقا (والتيهزت مواقع الشعبيين في السويداء لفترة قصيرة لولا صمود افرادها اصبح الرأي العام مهيأ لخوض معركة حاسمة من اجل الغاء الاستقلال المالي - الاداري وجعل الجبل محافظة منذمجة كسائر المحافظات ، فما يقوم به الانفصاليون في الجبل كان مخططا له من قبل وكيل المندوب الفرنسي ومستشاريه الاداريين في السويداء وصلخد وشهبة ، ولا ينقذنا منهم غير الغاء هذا الوضع الذي اوجدوه لصالحهم .

وهنا لا بد من كلمة عن موقف الحكومة المركزية من الموضوع : في تلك الاثناء كان سعد الله الجابري الذي شكل الحكومة بعد الانتخابات يدلي بتصريحات يستشم منها انه غير مهتم بمصير محافظة الجبل - وكان الاستاذ محمد التابعي الذي زار سورية قد نشر حديثا مطولا عن هذا الموضوع لخص فيه رأي الحكومة المركزية بكلمات قاتمة متشائمة تدل على ان تلك الحكومة لا تدرك معنى الوطن والوحدة والمصير ولا تحسب حسابا لرأي الشعب : قال التابعي ما مؤداه : ان الحكومة لا يهمها مصير هذه الصخور السوداء القاحلة ، فلتذهب الى الاردن اولتبق مع دمشق ، اولتبق مستقلة ، لا مع دمشق و لا الاردن ، ان هذا هو شأنها : والمهم الا تثير المتاعب ، وحين اطلعت على المقال معقت امام هذه السطحية ، وهذه اللامسؤولية معقت امام هذه السطحية وهذه اللامسؤولية في معالجة قضايا وطنية مصيرية كهذه وكتبت جوابا موجها الى الاستاذ التابعي (ومن وراءه) نشر في جريدة الاحرار (او (صوت الاحرار) التي كانت تصدر في دمشق آنذاك ، قلت فيه ان الحكومات لا يمكن ان تكون هي التي تقرر مصير ارض الوطن المصونة بالدستور الذي يضعه الشعب وبالثورات وبالدماء وبالتاريخ ، وقلت ان هذه الصخور السوداء هي التي كانت بثورتها العظيمة سببا لاستقلال البلاد ولوصول الوزراء الى مناصبهم وهي متمسكة بوحدتها أشاءت الحكومة أم لم تشأ ..

وقد تأكدنا من ان هذا الذي نشره التابعي هو رأي الحكومة حينما ذهبنا ، نحن (شباب العروبة) مع عدد من الرفاق لمقابلة السيد سعد الله الجابري ،فلقد قال لنا بالحرف الواحد تقريبا : "أنا لست مهتما بوحدتكم مع دمشق او بقائكم مستقلين ماليا -اداريا - ما يهمني هو الهدوء عندكم - فانتم تزعجونني بخلافاتكم - وافضل سورية هادئة من دون الجبل ، على سورية مضطربة مع الجبل " وأجبناه الجواب الذي يستحق .. وخرجنا مغضبين .. .

حين خرجنا من المقابلة واجتمعنا بالفندق ، استعرضنا هذا الكلام فوجدناه خطيرا جدا ، وخطرا كل الخطر : أهذا موقف رئيس وزارة وطني ؟ وخلصنا الى النتيجة المنطقية التالية :ان الغاء الاستقلال الاداري - المالي قضيتنا نحن ، لا قضية الحكومة المركزية ولا غيرها - واذا كان الحكام الوطنيون يستبعدونها لأن ليس من ورائها فائدة مالية ترجى (للخزينة المركزية) فان الشعب في المنطقة وفي بقية انحاء الجمهورية لا يرى ان المعركة المقبلة حتما مع فرنسة تتطلب اجتثاث جذور مخابراتها وعملائها من المحافظتين المستقلتين ماليا واداريا ، السويداء واللاذقية - واذا

نجحت حركتنا في السويداء فاللاذقية ستقوم بالعمل ذاته (وقد اثبتت التجربة صحة هذا التوقع) ولذلك نرى ان المقابلة الهادئة لن تؤدي النتيجة - وانه لا بد من معركة حقيقية نخوضها في الجبل من اجل بلوغ الهدف الوطني الوحدوي - لا بد من العنف .

وفور عودتنا الى السويداء عملنا على عقد اجتماع شعبي عام عرضنا عليه نتائج مقابلتنا لرئيس الوزارة وتمخض الاجتماع عن قرار خطير هو : مقاطعة أجهزة الحكم الانفصالي القائم والامتناع عن دفع الضرائب للحكومة المحلية حتى يلغى الاستقلال الاداري المالي - وبدأ الغليان بعد انقضاض الاجتماع وتصاعدت المقاومة السلبية (العصيان المدني) في سرعة مذهلة .

ولم يأت شهر نيسان ١٩٤٤ حتى بلغ التصاعد الذروة ، وبعد ظهر ٣ نيسان ١٩٤٤ خرجت تظاهرة مسلحة من السويداء باتجاه سراي الحكومة وهاجمت السراي وحطمت الابواب والنوافذ وبعثرت الاوراق والسجلات وشملت مقاطعة الحكومة والامتناع عن دفع الضرائب جميع القرى - وتلقت هيئة الشعب الوطنية تأييدا منقطع النظير .

كان حسن الاطرش قد عاد محافظا بعد ان افلتت الوزارة من يده على الرغم من المناورة - الردة . وبعد تفاقم الوضع السياسي داخل الجبل وعزلة الحكومة المحلية ما عدا المحاكم ، رد المحافظ على الاجتماعات الشعبية باجتماع عقده في " عرى " ضم افراد العائلة وانصار الوضع القائم ، ولكن تبين ان الاجتماع هزيل بالنسبة الى احد الاجتماعات الشعبية الذي عقد في المزرعة وضم بين ١٥ و ٢٠ الف رجل . واقتنع المحافظ الممتاز وجماعته اقتناعا ضمنيا بأن معركتهم خاسرة ، ولكنهم اعلنوا مقررات اجتماعهم بالمحافظة على الوضع القائم لأنه اكثر فائدة للجبل واكثر محافظة على الكيان والكرامة والعادات والتقاليد وسائر هذه المعزوفة التي يرددها الانفصاليون في كل زمان ومكان.

خلال ذلك كان لي نشاطي الخاص - ضمن ٦ل٧ خ ٣ل)

ضمن الخط العام - كنت أؤسس فرع العصبة في الجبل : بدأت عام ١٩٤٢ بافرادقلائل ، ثم توسعت قليلا عام ١٩٤٣، واخذت أتوسع اكثر عام ١٩٤٤، اردت ان يكون لنا تنظيم صلب داخل هيئة الشعب الوطنية تحسبا للطوارئ ومن اجل التمكن من التوجيه ونشر الافكار التقدمية والمبادئ الوطنية السليمة بين سكان القرى وبخاصة خلال الاجتماعات العامة . وكان الوضع في شهبة بوجه خاص يشجع على التنظيم- فقد كانت فيها مجموعة من الشبان الواعين المتكتلين (معلمين ، تجارا ، فلاحين، موظفين) والقائمقام الشاب طرودي عامر، رفيق ايام الدراسة يضفي عليهم حماية تساعدهم على العمل ، ويتعاون معهم سرا، وفي ٢٨ نيسان ١٩٤٤. * مثل الشباب رواية تمثيلية استخدم فيها الملعب الروماني - لأول مرة بعد انقضاء عهد الرومان - واستخدمت طريقة التنوير ذاتها التي ابتكرناها حين اتخذنا من المدارس مسارح ، واستخدمت الكواليس للدخول والخروج والتلقين - اما المشاهدون فكانوا جميعا على مدرجات الملعب وهي تتسع لحوالي الف مشاهد وكانت مشغولة كلها - والقيت خطابا خلال الرواية عن اهداف الشباب .

كان مستشار القضاء الفرنسي يتجاوز-

حدوده كثيرا ـ وقرر الشباب ان يبدؤوا عملية ازعاج (اقلاق راحة) ضد المستشار الفرنسي ليحملوه الى الرحيل ، وبدأت عملية يسمونها عندنا في الجبل (مداورة وهذه العملية كانت تستعمل من قبل طالبي الثأر ضد الواترين او المطلوبين بالثأر : وهي تتم بوسائل متنوعة اهمها اطلاق العيارات النارية باتجاه منزل المطلوبين او طرق ابوابهم وتهديدهم بالكلام او وضع فشكة برصاصتها تحت وسادة المطلوب ، او في مهباج قهوته ، او في احد اباريق القهوة ، او في اي مكان آخر داخل المنزل : وهذا يعني : " لو اردنا قتلك لفعلنا ، فاتعظ واسع الى حل القضية " ـ وربما اشتقت لفظة المداورة (من الحوم حول الدار) اومن القيام بذلك دوريا في مواعيد معينة ، او قيام كل شخص او كلمجموعة في احدى الليالي ، وغيره او غيرهم في ليلة اخرى ، وفي اللغة : المداورة هي المعالجة وربما قصد بها هذا المعنى ، وما اتبع مع مستشار القضاء كان الاسلوب الاول وهو اطلاق النار ليلا ـ في ساعة متأخرة من الليل ـ باتجاه منزله ، واقلاق راحته ، على الرغم من وجود الحرس السيار الخاص به ، المهم ان ما صار يجري في شهبة اقض مضاجع الفرنسيين وفتح عيون ابناء الشعب على مايمكن عمله في المستقبل القريب ...

هذه السنة في ٦ ايار احتفلنا بذكرى الشهداء والقيت خطب وطنية وقصائد من جملتها قصيدة الاستاذ سلامة عبيد ، وقصيدتي ـ ولم نعد نفلت مناسبة وطنية او قومية دون ان نفيد منها للتوعية وزيادة وحدة الجبهة المناضلة وتمتينها الا انه لا بد من التنويه بحادثة سيكون لها اكبر الاثر في تطور الاحداث وفيحسم الموقف مع الفرنسيين حين تدق الساعة : في الاسبوع الاول من حزيران ١٩٤٤ كنت في منزلي حين قدم لزيارتي ضابط شاب برتبة ملازم اول ، وسيم ربعةمفتول العضلات، يشع الذكاء من عينيه وتتفجر الحيوية من كيانه كله . وحين استقبلته على الباب ادى التحية العسكرية ـ فدهشت ، فقال " هانيء " فأجبته " هانيء " وكان اسم"هانيء " ابن مسعود الشيباني " هو كلمة السر والتعارف بين العصبيين ، وكان الزائر هو فضل الله ابو منصور ، وكان يحمل الي رسالة من الاستاذ علي ناصر الدين ، رسالة تعريف فهمت منها ان الضابط انتسب الى العصبة في لبنان ايام كان قائدا لسرية حرس المفوض السامي المؤلفة من الفرسان الجبليين ، واشرقت في ذهني فجأة صورة لمخطط كنت غافلا عنه حتى ذاك التاريخ وهو جعل التنظيم مشتركا بين المدنيين والعسكريين ، ـ واعتماد الطريقة السرية ، بالنسبة الى العسكريين ، لأنهم كانوا تابعين لقيادات فرنسية ، ولأن الفائدة الكاملة انما ترجى من بقاء انتمائهم سريا ـ ووجدت أن العصبة في بيروت قد ابتكرت اسما حركيا للعسكريين فأطلقت على الضابط فضل الله ابو منصور اسم " ابن الجبل " .

وبحثت مع الزائر كل المستقبل الذي نريده ، واستعرضنا اسماء الشبان من العسكريين ضباطا وضباط صف وجنودا ، وركزنا على العناصر المثقفة قدر الامكان ، شرط ان تكون موثوقا بها ، ولم أخف عليه انني كنت قبل تلك الساعة

شديد الحذر من الذين تطوعوا في الجيش بقيادة الفرنسيين ، فاقنعني بعكس ذلك ولفت نظري الى ان هذا التطوع كان الحل الوحيد امام شبان يحبون الحياة العسكرية بالفطرة ، ولا يجدون جيشا وطنيا ينتمون اليه ، وهم فقراء ولا عمل لهم ، الا انهم مخلصون لوطنهم وامتهم ، والايام ستثبت ذلك ، واتفقنا على ان يكون هو رئيس القسم العسكري من التنظيم وان يكون مسؤولا امامي مباشرة .

واتفقنا على تعميم الاسم الحركي للعسكريين فيكون الاسم (ابن الجبل رقم كذا) وكان فضل الله (ابن الجبل رقم ١) والاتصال بيننا يتم مباشرة وشفهيا مبالغة منا في حفظ السرية التامة ـ واتفقنا على ان يكون في كل سرية مسؤول مرتبط به مباشرة والاعضاء يجهل بعضهم البعض الاخر .

والمسؤول وحده يعرفهم ، ويجبي منهم الرسوم الشهرية ، وانتشر التنظيم العسكري الى جانب التنظيم المدني ، واصبحنا قوة المستقبل التي يحسب لها حساب ، كل ذلك ولم نتخل عن دورنا في هيئة الشعب الوطنية لتنفيذ منهاجها المرحلي .

وكنا نحاول ـ قدر المستطاع ـ ان نطعم مبادىء الهيئة العامة ببعض مبادىء العصبة الخاصة فنستعمل في البيانات بعض التعابير الحديثة التي هي فوق مستوى التفكير العادي ونحاول ان نشد باتجاه احلال علاقات اجتماعية جديدة قائمة على اساس التقويم الشخصي (اخلاق ، مبادىء ، اهداف ، ثقافة ، نشاط ، زمالة عمل ونضال) محل العلاقات القديمة القائمة على اساس الوراثة والاعتبارات العائلية والقروية والاقليمية التي تأخذ الانسان على علاته شرط ان يكون ابن العائلة او القرية او المنطقة ويغتفر له كل اخطائه على هذا الاساس ، كما اخذنا نقلل من الاهتمام بالمجد الشخصي ونقيس الشخص بمقياس دوره في المجتمع كدور الحجر الواحد في البناء ، لا هو كل شيء ، ولا هو لاشيء ، بل هو ضروري وله كامل اهميته ، ولكنه يجب الا يعتقد ان الدنيا بدونه خواء ، وان البناء من دونه خراب .

وكذلك ننشر الوعي التاريخي القومي ، والجغرافي العالمي : فنحد من تعصب الفرد لبلده وطائفته ، وحصر العصبية بالوطن كله ، والامة كلها ، مع عدم الاقلال من قيمة الاوطان الاخرى والامم الاخرى ، فأن يعتقد الانسان الامي انه لولا قريته او اقليمه لخرب العالم ، ولولا عائلته واهل بلده تعقمت الدنيا ، شيء ضد الطبيعة الامور ، وضد العقل ، وضد العلم وسعة المعرفة ، وكنا نطبق ما نعتقد على سلوكنا الشخصي : فلاوجاهة ولا تزاحم على الدخول او احتلال المقاعد ، او الحصول على المنافع والمكاسب ، ولا حديث الا اذا كان هنالك من راغب اخر في الحديث ، ولا ادعاء بالعلم الكامل ، والصواب الدائم ، والمقدرة على اجتراح العجائب ، وتحقيق المعجزات ، بل تواضع ، وعمل صامت ، مع رفض الهوان ، والاهانة ، والاعتداء ، وعلى الاخص اذا صدرت عن افراد او جماعات ذات مزاعم وراثية او زعامية ..

كانت مقاطعة الحكومة المحلية (العصيان المدني) تعمل عملها المتصاعد كأنها اللولب الذي يزيد نفاذه عمقا لدى كل حركة ، وحين فشل اجتماع عرى

الهزيل ووجد حكام الجبل انفسهم معزولين تماما ، دعوا مجلس الادارة للاجتماع ، وكان افضل اجتماع لهذا المجلس في حياته ، فقد قرر المجلس - وقد قدم اعضاؤه من مختلف المناطق وهم مطلعون على قوة الحركة الشعبية وعموميتها - قرر الاستجابة الى مطلب الجماهير بالغاء الاستقلال الاداري - المالي وتحقيق الوحدة السورية الشاملة .

صدر القرار في ايلول (على ما اذكر) ورفع الى الحكومة المركزية لتصدر قانونا بالموافقة عليه - وحضرنا جلسة المجلس النيابي يوم ١٩٤٤/١٢/٣١ التي خصصت لدراسة الموضوع ، وخطب رئيس الوزراء الاستاذ فارس الخوري خطابا قوميا شاملا استعرض فيه تاريخ الجبل وفضله في مراحل النضال التحرري في العهدين العثماني والفرنسي ، وقال ان الجبل دفع ضريبة الدم عن الوطن كله فليس كثيرا ان تمده الدولة بما يحتاج اليه من مال في سبيل العمران ونشر العلم ، واعتبر عودة الجبل الى الوحدة حدثا تاريخيا بارزا ، وكان التصفيق حادا طويلا ، وأقر مشروع القانون بالاجماع وتظاهر نواب الجبل بأنهم في طليعة المطالبين باقرار القانون ، وقبلنا في قرارة انفسنا بهذا التظاهر لأن الوطنية الصحيحة لا ترضى بتأييد الحقد مع ما يتطلبه العقل من تحفظ وانتباه بالنسبة الى تصرفهم في المستقبل واطل عام ١٩٤٥ على الجبل وهو محافظة عادية من المحافظات السورية لها مالها وعليها ماعليها : لا مستشار اداري ، ولا مستشار اقضية من الفرنسيين بعد الان ، ولا مجلس ادارة ، ولا محافظ ممتاز ،

المراكز التي بقيت للفرنسيين قيادة القطعات الخاصة المعروفة بالمجتمع الدرزي ، ومجموعها حوالي الف ومائة خيال كلهم من ابناء الجبل بطوائفه المختلفة ، بينهم نحو خمسة وعشرين ضابطا فرنسيا اكبرهم برتبة مقدم وعدد كبير من الضباط وضباط الصف المحليين ، ولهم مخابراتهم الخاصة - وكان يرأس هؤلاء الضباط المقدم (قومندان) سارزان ممثل مندوب المفوض السامي بالمحافظة (ومندوب المفوض السامي مركزه دمشق ، وهو مرتبط مباشرة بالمندوب السامي او ممثل فرنسة في بيروت لدى دولتي سورية ولبنان المستقلتين من الناحية القانونية المحتلتين من الناحية الواقعية) .

الطفولة ونشيد البقاء

أحمد دوغان

تجمّع غيم، وصار السحاب
جيوشاً تجوب الفضاء،
وأسمع شيخاً يقول:
وبعد الغيوم يجيء المطرْ
فتصحو المراعي، وترنو طيوف البشرْ
الى كل خيرٍ
ويصرخ طفل صغير يقول:
- فلا تصدق قطعا لغيم المصيف
فهاتوا النجوم..
وصحو النجوم..
وعرافة من صميم الفلكْ
أيظمأ هذا الوجود
كعير على ظهرها الماء ليس يُرى
وتبحث عن سر هذا الظِماء؟!
وهذي المدينة عطشى
وفرسانها ظامئون
وتأتي المياه ولا يشربون..!

وتحمل بعض النساء بدون رجال
تهزُّ اليها جذوع النخيل
فتأتي الطفولة.. تأتي الرجولة
ويسأل هذي الأنام
عن الفرس والروم.. عن قهر هذا
تجيب الطفولة في المهد ماذا تقول؟؟
وغزو الغيوم نراه على كل واجهة في
هنا مرّ جيش التتار، ولكن الى المقبرهْ
وعند محطة قطع التذاكر فوق الغيوم
يسجل أن المباراة سوف تكون..!
وجيش الفرنجة كان هنا
يود البقاء..

وظل قروناً يبيع ويشري
ونجمةُ داوودٍ تحسب ألف حساب
تجيء وعداً، تبيح البغاء
تقول أنا الأنظمهْ

يطل هلال، ويوقد ناراً
وتهزم نجمة داوود لكن تبوح
بسر، توقّف حيث المباراة تأتي
وكان المشيب عليها يقول
تناسخت، يبقى التناسخ حتى أعود
ويأتي سلاح
ويمضي سلاح
ويخضر لون الوجود زمانا
ولكن يغطي السواد فصول الحياة. . !
وتسمع هذي الجيوش نشيدا
عليه نخيل، وتين، وزيتون طور سينين
فتمتد كل الحراب الى المهد تهوي
على كل طفل،
لتسكت هذا النشيد
ولكن على الطعن، والضرب. . يقوى
ويرتفع الصوت في «دير ياسين» و«اسكندرون»
وقبل انقطاع النشيد

تجيء وفود من النخل والشمس. ، من كل نبعٍ
وعند انكسار الأصيل يدوّي انفجار
تعالى صداه. .
ستبقى الطفولة. . ينبقى الصغار

الجزائر العاصمة

من الأرشيف

هنري برغسون والأخلاق

د. جميل صليبا

كنا ننتظر بفارغ الصبر ظهور كتاب (هنري برغسون) في الاخلاق ، وكنا نشك ، قبل ظهوره ، في قيمة التطور المبدع وطريقة الحدس . الا ان هنري برغسون بدد كل ما يحيط بمذهبه من الشك واخرج لنا في هذا العام كتاب الاخلاق الذي سماه : منبعي الاخلاق والدين (١) .

لسنا نستطيع ان نلخص بهذه الكلمة كل ماجاء في كتاب الاخلاق من الافكار الصائبة والاحكام العميقة ، لان كل فقرة لابل كل كلمة من هنري برغسون تحتاج الى ايضاح دقيق وشرح طويل . ولا غرو فهو فيلسوف العصر ، ولم نجد فيلسوفاً بلغ منذ عهد (كانت) و (شوبنهاور) الدرجة التي بلغها هنري برغسون من التفكير العميق والتجريد العجيب والبيان الساحر . اذا قرأته لايستولي على عقلك فقط بل يأخذ بمجامع قلبك فتجد في كل كلمة من كلماته شعراً يدعوك الى ان تكون من اصحابه وتلاميذه . قال (وليم جيمس) في كتاب فلسفة التجربة (ص — ٢٥٦) (٢) : « اقرأ هنري برغسون ، تجد في كل صفحة من صفحاته ، لابل في كل سطر من سطوره افقاً جديداً . فكأنك تشم بنسات الصبح او تسمع تغريد الطير ، وكأن اللغة التي يكلمك بها هي لغة الحقيقة والوجود ، لا لغة التعليم التي ينقل غبارها اليك طائفة من الاساتذة الذين تعودوا ان يغربلوا افكار غيرهم »

اجل ان اللغة التي يكتب بها هنري برغسون هي لغة الاحياء ، وطريقته

« هنري برغسون »

في طريقة الحدس . اما اسلوبه فمعجزة من معجزات الفن وهو « ساحر عجيب » .

وليس يختلف هذا الاسلوب في (كتاب الاخلاق) عنه في « كتاب التطور المبدع » بل تشعر في كل منهما بالدافع الحيوي « Elan vital » الذي يتكلم عنه برغسون نفسه ، ويخيل اليك ان المؤلف لم يغلق لك افقاً ادنى لا ليفتح لك افقاً اعلى . وفي الحق ان للاخلاق كما للدين آفاقاً عديدة

(1)Henri Bergson , Les deux sources de la morale et de la religion , Alcan , Paris 1932

(2) W . James , Philosophie de l'expérience Flammarion . Paris 1924

ولكل افق مرتبة في الكمال تختلف عن مرتبة الآخر . الا ان فيلسوف لحدس ارجع هذه الآفاق المختلفة إلى افقين ، احدهما محدود متناه ، والآخر غير محدود . وهذا الافق المحدود هو افق البيئة الاجتماعية الضيقة التي يعيش فيها الانسان مقيداً بالعادات والتقاليد . اما الافق الثاني فهو افق الانسانية التي يتجرد فيه الفرد من نطاق الحياة الاجتماعية الضيقة ويرتقي إلى ادراك المثل العليا السامية والغايات المجردة . ولذلك كان الافق الاول ضيقاً والثاني واسعاً ، يخضع الفرد في الافق الاول لضرورة التقاليد والواجبات الاجتماعية كما تخضع الاجسام لضرورة النواميس الطبيعية ، ويتجرد في الافق الثاني من هذا التضييق الاجتماعي ، ثم يرتقي باحلامه الى مناهضة العادات المحدودة والقواعد الضيقة . الحياة الاولى اشبه بحياة المقيمين في كهف مغلق الابواب اما الثانية فهي حياة فضاء لا حدود لا نهاية له . انظر الى واجبات الافراد التي لا حيلة لهم في اختيارها سواء كانت عائلية او وطنية ، فانهم مرغمون على اتباعها بسائق الغريزة وحاكم العادة لانها واجبات اتباعية ذات نطاق محدود ، ثم انظر الى وحي الانبياء واحلام الفلاسفة ودعوة المصلحين تجد انهم لا يرغمونك بسائق التقاليد وضرورة الاجتماع على اتباع القواعد المألوفة ، داخل نطاق المجتمع الضيق ، بل يكلمونك بلغة الالهام الحدس وتجد في اقوالهم ما يدعوك الى الخروج من لافق الضيق ويحملك على اتباعهم . فهناك إذن منبعان للاخلاق والدين اولهما الحياة الاجتماعية الضيقة والثاني حياة الانسانية الواسعة . المنبع الاول محدود والثاني غير محدود . وللانتقال من المتناهي الى غير المتناهي درجات لا بد للمتحرك من المرور بها . والفرق بين هذين النوعين من الاخلاق كالفرق بين الادراك والاحلام . لان الادراك مقيد ثابت ، اما الاحلام فمتحركة ومتبدلة . وهذا ما ينقلنا من السكون الى الحركة ويدخلنا في فلسفة التصوف التي استخرجها هنري برغسون من كتاب التطور المبدع . وهو كتاب الكون والتجديد والابداع والحياة والحب

ومما هو جدير بالذكر ان هنري برغسون لم يترك في كتاب الاخلاق فكرة من فكره الاولى بل تعصب لها ودافع عنها وحرك في افكار تلاميذه دافع الحياة وعامل الابداع . لم يتراجع امام حملات المنتقدين واعتراض المعترضين بل زاد افتخاراً بتصوفه وروحانيته

وقد فرق في كتابه بين ديانة الجماعات الضيقة وديانة الانسانية الواسعة التي ليس لها وطن . . وفرق ايضاً بين التقاليد الدينية التي تضيق على الافراد والعبادة المفعمة بالاحلام والحب . وقال ان الايمان ليس خوفاً وخشية بل هو امان من الخوف . إذن فالديانة المتحركة خير في مذهبه من الديانة الساكنة وهذه الديانة المتحركة هي طريقة التصوف ، والاخلاص لمدنية الصناعة من شقاء المادة الا بابداع جديد في افق الحياة الاخلاقية والدينية وذلك بالاعراض شيئاً فشيئاً عن مظاهر الرفاه والرجوع الى الحياة البسيطة ، لان ازدياد الرفاه وتعدد الحاجات ، وارتقاء الاختراعات الصناعية كل ذلك لم يحسن مصير الانسان ولا خفف من شقائه . ولا تقع تبعة ذلك على العلم لان العلم لا يبحث عن السعادة ولا عن الشقاء . فلا محيد إذن عن التقدم العلمي . ولئن كان في التقدم حياة فليس في السكون واتباع التقاليد كمال . ولذلك انتقد هنري برغسون فرائض الديانات الاتباعية كما انتقد صور المدنية المزيفة . لان المثل الاعلى عنده هو الحب ، والحب هو الابداع . فما قاله في ذلك : « ان ذات الاله هي الحب ، ولكن هل نحب للحب ذاته ، ام نحب لشيء آخر غير الحب ؟ ان العواطف السامية قائمة بذاتها ، وهذه الموسيقى تدل على الحب ، كأن لكل موسيقى حباً ، ولكل حب موسيقي . الا ان هذا الحب ليس حب شخص من الاشخاص . اذا تغيرت الموسيقى تغير الحب . كأن هناك فلكين لعاطفتين مختلفتين اوعطرين متباينين . وفي كلا الحالين لا نعرف الحب بغايته بل نعرفه بذاته وهو هو لم يتغير . . . . ولكن من ذا الذي يعشق للعشق نفسه من غير ان يكون له معشوق ؟ الا يقول المتصوفون ان الاله محتاج الى الناس كما ان الناس محتاجون اليه ؟ فالاله عاشق وهو بحاجة الى معشوق ؟ كما ان الابداع هو خلق كائنات مبدعة جديرة بان تعشق » . (ص ـ ٢٧٣)

الى مثل هذه النتائج الساحرة يوصلنا هنري برغسون بلغته الشعرية ولو ساعدنا المكان لنقلنا جميع آرائه في المدنية الحديثة . الا اننا نقتصر على بعضها : فمنها قوله ان الحرب ضرورة طبيعية ناشئة عن تزايد السكان وفقدان الاسواق التجارية ونقص المواد الاولية . وانه لا يمكن منعها واخماد نارها الا بمعالجة اسبابها الطبيعية كمراقبة ازدياد السكان وتنظيم الانتاج وغير ذلك وانه لا نجاح لعصبة الامم إلا اذا شاركت الدول في وضع شرائعها الداخلية فلا بد لها من تنظيم الانتاج وجعله متناسباً مع الاستهلاك . ولا بد من رادع عقلي يوقف الغريزة عند حدها . وقد ادرك اليونان ذلك منذ القدم فجمعوا في اساطيرهم بين (فينوس) الهة الحب و (مارس) اله الحرب . ومعنى ذلك ان الامر اذا وسد الى (فينوس) فانتظر الساعة ، لان فينوس هي رمز الغريزة فيجب كبح جماحها وايقافها عند حد العقل . ولعل الاصلاح لا يكون إلا بالرجوع الى الحياة البسيطة وتخفيف الرغائب والحاجات وهذا يقتضي العدول عن اتباع اللذة في سبيل اللذة

ومن الآراء التي جاء بها هنري برغسون ان المرأة مساوية للرجل في المدارك العقلية وانها دونه في العاطفة . ويقصد بالعاطفة ، العاطفة العميقة،

لا التهيج السريع والاضطراب الموقت . ومنها انتقاده لمذهب الاجتماعيين (لفي برول) و (دور كهايم) في العقلية الاولية وقوله ان الاساطير ضرورة لا محيد عنها وانها ملازمة للعقل البشري وان العقلية الاولية موجودة في دماغ الرجل المتمدن ايضاً ، ولعلها موجودة في دماغ (لفي برول) ايضاً . وهكذا فان هنري برغسون يعتقد ان الطبيعة البشرية واحدة الجوهر وهو اقرب الى الايمان بالاخلاق من اصحاب المذهب الاجتماعي الفرنسي

وقصارى القول ان مذهب هنري برغسون في منشأ الاخلاق لا يختلف عن مذهبه في منشأ العلم ، وهو مذهب حيوي يجعل الاخلاق الحقيقية قائمة على الحياة والحب والابداع لا على التفكير المقيد باحكام المنطق الجامدة

جميل صليبا

٧٥ ـ فاستفدت التاريخ

قال الفقيه المقري : انشدت يوماً الابلي قول ابن الرومي :

أفنى واعمى ذا الطبيب بطبه ... وبكحله الاموات والاحياء

فاذا مررت رأيت من عميانه ... أمما على ابوابه قراء

فاستعادني حتى عجبت منه ، مع ما اعرف من عدم ميله الى الشعر وانفعاله ، وظننت انه اعجب بما تضمنه البيت الاول من غريب اللف والنشر المكرر الذي لا اعرف له ثانياً فيه فقال اظننت اني استحسنت الشعر ؟

فقلت : مثلك يستحسن هذا الشعر ؟

فقال . تعرفت منه كون العميان كانوا في ذاك الزمان يقرؤن على المقابر فني كنت أرى ذلك حديث العهد فاستفدت التاريخ .

رفعتُ يَدي واعترفت

شعر: طاهر رياض

(١)

أنا الآن ثرثرة تستفيقْ
حنينٌ يعاود أنحاءه
قفزة في الهواء تهيء أعصابها
لتلم الطريقْ
أنا الآن منحرفٌ عن صراطي
يراودني الماء عن شفتيّ،
أراوده عن كلال يديه
ونهذي معاً بانبروقْ

لكأسٍ تباغتها الخمرُ،
تنفش أضلاعها الخمرُ
أو لانفتاح السماء على نفسها
سقطةً
سقطةً
حين تُرخي مباهجها
وتميط رؤاها
ومثلي على صمتها تستفيقْ!

أجادلُ فيَّ . .
وأنشرني عارياً من حدودي
أراني تهرّأتُ
أقذفني كي أعود جديداً
بعُرض الحريقْ!

(٢)

تعودتُ أن أشتهيه
وأن أتمادى إلى قبره كلَّ خوفٍ
أصلي عليه،
وأحشر بين ملامحه الآبقاتِ
احتفالَ النشورْ!

تعودتُ أن ألتقيه
على حافة التيه فَرقاً
يحفّز ناصية الوجد،
أو يستهلُّ الدمار الأخيْر
/له كلَّ نزفٍ صراخٌ
وكل صراخٍ نفيْر. . /